

الباب الثالث

السلوك الفطري والدوافع الفطرية

- الفصل السادس : المدخل لسلوك الفطري
- الفصل السابع : تحليل السلوك الفطري
- الفصل الثامن : الانفعالات
- الفصل التاسع : الاستهواء
- الفصل العاشر : المشاركة الوجدانية
- الفصل الحادي عشر : التقليد
- الفصل الثاني عشر : اللعب
- الفصل الثالث عشر : تقدير وتقدير لنظرية الغرائز . الحاجات ،
والأبجديات ، والدوافع

obeykandi.com

الفصل الثامن

المدخل للسلوك الفطري

مقدمة :

مما يساعدنا على فهم طبيعة سلوك الإنسان وعلى سهولة توجيهه الوجهة المنتجة أن نعرف بشيء من التحديد إذا كان ما يقوم به الإنسان هو نتيجة انطباعه بطابع البيئة ، أم نتيجة العوامل الفطرية الموجودة فيه ، أم نتيجة فعلهما معا .

وقد بحث المفكرون في هذه المشكلة واتجهوا فيها اتجاهات متعددة ، فقد ذهب « لوك Locke » الى أن عقل الطفل صفحة بيضاء ينقش فيها المرء ما يشاء ومعنى هذا أن ما نسميه بالحياة العقلية كله نتيجة لأثر البيئة . وألح « روسو » الى أن سلوك الطفل جميل وخطير بطبيعته ، ولا يفسده سوى تدخل الكبار . كانت هاتان المحاولتان وغيرهما محاولات شبه ارتجالية . ولكن اتجه بعض الباحثين الى حل المشكلة عن طريق الموازنة بين سلوك الإنسان وسلوك الحيوان ، وعلى أساس هذا المنهج رأى « ديكارت » أن الحيوان كآلة المعقدة التركيب المجردة من الحياة العقلية . ورأى أن الإنسان كالحيوان إلا أنه يزيد عليه في أمرين ، وهما التفكير والإرادة . وقد سبق « ديكارت » في هذه البحوث بعض الأئمة من فلاسفة العرب الذين أجمعوا على أن بالنفس ثلاثة أقسام : النفس الشهوية ، والنفس الغضبية ، ويشترك في هذين الإنسان والحيوان . أما النفس الناطقة فانها خاصة بالإنسان (١) .

وقد أفاد العرب في اتجاهاتهم هذه من فلسفات «أرسطو» و« أفلاطون» .

(١) ارجع الى الرسالة الاخلاقية لـ « يحيى بن عدوى » والى رسالة كيمياء السعادة للامام « الغزالي » .

وهناك اتجاه آخر ، وهو أن الفرق بين الانسان والحيوان هو في أن الحيوان يعبر في سلوكه عن « غرائزه^(١) » وأما الانسان فانه يعبر في سلوكه عن تفكيره وارادته . ويرى فريق آخر أن سلوك الانسان به بعض بقايا من سلوك الحيوان . وهذه الزوائد أو البقايا من سلوك الحيوان يجب القضاء عليها عند الانسان .

ويلاحظ في هذه الاتجاهات — عدا الاتجاه الأخير — اغفال للاتصال المستمر والتطور التدريجي من حياة الحيوان لحياة الانسان . وكذلك اغفال أن التفكير والارادة — بصورهما البارزة — من مظاهر الحياة للبالغين . بينما كان الواجب لحل هذه المشكلة توجيه عناية أكبر لدراسة سلوك الأطفال .

طريقة الدراسة :

ومن كل ما تقدم يمكننا أن نفهم مبلغ أثر ظهور نظرية التطور في دراسة السلوك ، اذ ترتب على ظهورها استغلال القائمين بدراسة السلوك للطريقة التتبعية « Genetic Method » والطريقة المقارنة « Comparative Method » . فبالطريقة التتبعية تأخذ الوظائف العقلية أو نواحي السلوك ، وتدرسها عند الحيوانات الدنيئة ، ثم تتبناها تصاعديا حتى نصل الى أرقى مراحلها عند الانسان ، وبذلك نفهم الكثير من سلوك الانسان ، وكذلك تأخذ الوظائف العقلية ونواحي السلوك عند الانسان ، وتتبعها تنازليا حتى نصل الى أحط مراحلها عند الحيوان . وعلى ضوءه نفهم الكثير من سلوك الحيوان . وأما الطريقة المقارنة فهي ترمى الى موازنة سلوك الانسان البالغ بسلوك الطفل ، وسلوك المتمدنين بسلوك البدائي ، وسلوك الانسان العادي بسلوك الشاذ ، الى غير ذلك . وهاتان الطريقتان تكمل احدهما الأخرى .

أوجه الشبه بين الانسان والحيوان :

أدى هذان النوعان من طرق الدراسة الى ابراز الشبه العظيم بين سلوك

(١) كان لهذه التفرقة اثر سييء في تفكير المحدين أنفسهم ، ففهموا الفرائز على أنها وحدات موجودة قائمة بذاتها يصدر عنها السلوك .

الانسان وسلوك الحيوان . فعند كل من الانسان والحيوان نجد أن العين مثلا تطرف للضوء الشديد المفاجيء . واذا وخرنا يد قط مثلا بآبرة فانه يضمها اليه بسرعة كما يفعل الانسان تماما في هذه الحالة . كذلك يفضب كل من الانسان والحيوان اذا أودى أو هوجم ، وينزع مع غضبه هذا الى مقاتلة من يؤذيه أو يهاجمه . ونجد كذلك ما يدل على أن الكلب الصغير يشعر بالمدلة والخضوع بجانب الكلب الكبير الضخم . وهذا يشبه ما نجده في الانسان العادى من علامات المدلة والخضوع عندما يقف أمام رئيس ، أو أمام رجل عظيم كزعيم وطنى أو دينى . وكما يخرج الانسان لكسب الرزق لأطعام أولاده وايوائهم يخرج الحيوان للبحث عن فريسة أو طعام يقدمه لصغاره . وكما تصنع الحمامة عشها لتضع بيضها فيه تعد الأم البشرية عدتها للوضع بطريقة تشبه في جوهرها طريقة بعض أنواع الحيوان .

وأكثر من هذا كله نجد في الحيوان ما يدلنا على قدرته على نوع من التصرف أو « التفكير » . فقد وضع أحد علماء النفس « شمبانزين » في غرفة علق في سقفها مقادارا من الموز ، ووضع في نفس الغرفة ثلاثة صناديق ، فآخذ « الشمبانزيان » ينظران الى الموز ، ويصرخان كالأطفال عندما يصرخون أمام الحلوى البعيدة عن متناول أيديهم ، ثم أخذوا يلعبان ويحركان الصناديق فوصل أحد الصناديق بطريق الصدفة الى ما تحت الموز مباشرة ، فصعد عليه أحدهما . ويظهر أنه أدرك اذ ذلك أن المسافة بينه وبين الموز قد قصرت وقاما بعد ذلك بحركات متعددة انتهت بأن ساعد كل منهما الآخر على وضع الصناديق الواحد فوق الآخر ، ثم صعد أحدهما الى الصندوق العلوى وتناول الموز ، وألقاه الى الأرض ، ثم نزل وأكل هو وزميله ، وتمتعا بثمره هذا المجهود « الفكرى » العنيف . وهذه التجربة (١) — وغيرها كثير جدا — تدل بلا شك على مقدرة « الشمبانزى » على نوع من الادراك والتفكير ، وتبين كذلك مقدرته على نوع من التفاهم والتعاون (٢) .

(١) راجع صفحة « ٨٢ » من هذا الكتاب .

(٢) Kohler : Mentality of Apes.

ونستدل من كل هذه الملاحظات على أننا نجد التفكير مثلاً في كل من الحيوان والانسان ، ولكننا نجده في الحيوان بدرجة أقل مما نجده في الانسان ، ونجد كذلك النزوع الى الغضب والوالدية والخنوع وغير ذلك في كل من الحيوان والانسان ، ويمكن وضع قاعدة عامة وهي : أن الفرق بين سلوك الانسان وسلوك الحيوان هو فرق في الدرجة لا في النوع .

ويحسن بنا اذن لدراسة النواحي الفطرية أن نجعلها تقوم — كما سبق أن أبدأنا — ما أمكن على الطريقة التتبعية ، فنبدأ بالسلوك عند الحيوان ، وتتبعه تصاعدياً حتى نصل الى أرقى مراحل عند الانسان . ونبدأ بسلوك الانسان وتتبعه تنازلياً الى أحط المراحل في سلوك الحيوان ، وعلى ضوء هذه الدراسة التتبعية بنوعيتها نفهم الكثير عن سلوك كل من الحيوان والانسان .

سلوك الحيوانات الدنيئة :

فاذا تأملنا الحيوانات الدنيئة « كالبروتوزوا » نجد سلوكها بسيطاً (آليا) الى حد كبير ، ولناخذ مثلاً لذلك « الاستنتر Stentor » — وهو مخلوق ميكروسكوبى شكله مخروطى تقريباً ، وله حول الجزء الواسع شعيرات Cilia — فنجد انه اذا سلطنا ضوءاً على الجزء الواسع منه فإنه يتعد عنه . فالضوء هنا هو المؤثر وحركة الابتعاد هنا هي رد الفعل (أو التلبية أو الرجوع) ، ولهذا الحيوان تركيب جسمانى خاص يساعده على استقبال هذه المؤثرات والرد عليها مباشرة . وتتبعية الفعل للمؤثر بشكل بسيط ثابت غير قابل للتعديل تجعل السلوك عبارة عن حركة آلية . والواقع أن أهم خاصية للحركات الميكانيكية هي ثبوت تبعية الحركة للمؤثر ، وسهولة امكان التنبؤ برد الفعل للمؤثر المادى المنتج له . وفي حالة ابتعاد الحيوان كل مرة يقع الضوء عليه فيها نجد السلوك ثابتاً يمكن التنبؤ به ، كما تتنبأ باضاءة المصباح الكهربائى في كل مرة ندير المفتاح المتصل به .

ولكن اذا أخذنا نفس الحيوان السابق الذكر ووضعنا في السائل الذى يعيش فيه بعض المواد الكيماوية التى تؤذيه ، فاننا نجده أولاً يتلوى مبتعداً عنها ، فاذا لم ينجح هذا التلوى في الابتعاد به عنها نجده يحرك

الشعيرات التي حول قمته ليبعد بها المواد الكيماوية ، فاذا لم تنجح هذه الحركة في تخليص الحيوان نجده يتكور ويغلف نفسه بغلافه الخارجى ، فاذا تكررت هجمات المادة السامة نجده يعوم ويجرى من هذه المنطقة كما يبحث عن منطقة أخرى . وتدل هذه التجربة على أن الحيوان يغير من سلوكه حتى ينجح في الابتعاد عما يؤذيه .

فاذا أخذنا نتيجة تجربة الضوء فقط فلا نحتاج الى أن نفترض للحيوان الذى وصفناه شعورا أو ارادة أو رغبة أو تفكيرا . ولكن التجربة الثانية تجعلنا نشك فى أن سلوك الحيوان آلى صرف ، بخلاف التجربة الأولى ؛ فانها لا تدلنا الا على سلوك آلى . حتى اذا سلمنا بأن سلوك الحيوان فى الحالتين آلى ، وانتقلنا الى سلوك الانسان فاننا نجد عنده ما يشبه سلوك « الاستنتور » فيما يسمى بالفعل المنعكس .

الفعل المنعكس :

هناك مجموعة من ردود الأفعال يقوم بها الانسان بطريقة آلية ثابتة ، فاذا ازداد الضوء الواقع على العين ضاقت الحدقة واذا قل الضوء اتسعت . واذا دخلت ذرة تراب فى القصبة الهوائية سعل الشخص ، واذا دخلت فى الأنف عطر ، واذا وخزنا رجل النائم بدهوس فانها تنكمش ، واذا ضربنا شخصما ضربة سريعة حادة فى موضع معين تحت الركبة فان الساق ترتفع ، واذا وضعنا طعاما فى فم شخص جائع فان لعابه يسيل ، الى غير ذلك .

هذه كلها أفعال آلية ثابتة يتحتم الحصول على كل منها فى حالة احداث المؤثر المناسب . وهذه الأفعال الآلية - وأشباهها كثيرة جدا عند الانسان - تخرج من دائرة الارادة أو التحكم ، وتحدث دون تفكير أو رغبة . وهى تحدث دون شعور منا بالمرّة فى بعض الأحيان ، وذلك كما فى حالة ضيق الحدقة واتساعها ، وكما فى حالة انكماش رجل النائم . وهذه الأفعال الآلية تسمى بالأفعال المنعكسة ، وهى شبيهة بما شاهدنا فى سلوك « الاستنتور » لا سيما فى التجربة الأولى .

والفعل المنعكس البسيط يمكن أن يحدث اذا كان هناك تأثير مناسب ،
واذا كان هناك تيار عصبى ، واذا كان هذا التيار يصل الى عضلة أو غدة
لتردد على هذا التأثير . والتيار العصبى يمر فى خيط مستقبل أو حساس ،
ثم فى خيط عصبى محرك . وبين الخطين العصبيين ما يسمى بالوصلة
العصبية . ونظرا لتعدد الخيوط العصبية وتشعبها عند الوصلة ، فليس من
السهل الحصول عند الانسان على فعل منعكس بسيط بالصورة التى
ذكرناها ؛ ولهذا فان النسبة بين الأفعال المنعكسة البسيطة وغيرها عند
الانسان نسبة صغيرة .

وتبدو آلية الفعل المنعكس من التجارب التى أجريت على بعض
الحيوانات كالكلاب والضفادع . فاذا انتزع مخ الضفدعة مثلا تجد أنها
تفقد أهم خواص السلوك التى ذكرناها وهى التلقائية ، فهى لا تتحرك من
تلقاء نفسها أبدا ، ولكنها تقوم بحركات ثابتة معينة تحت فعل المؤثرات
المناسبة ؛ فاذا قلبت على ظهرها تعود الى وضعها الطبيعى ، واذا وضعت فى
الماء تقوم بكل حركات السباحة ، واذا وضع حامض على رجلها تكمشها ،
واذا وضعت على مستوى خشبى مائل فانها تزحف الى أعلى حتى تصل
الى وضع مناسب وهكذا . وتختلف الضفدعة التى انتزع مخها عن الضفدعة
العادية فى أن الحركة لا بد أن تتبع المؤثر المناسب ، وفى أن الحركة كذلك
لا بد أن تقف بزوال المؤثر .

ويلاحظ أن ما يمكن أن يفسر من سلوك الانسان على هذا الأساس
الآلى كثير ؛ ولو أنه فى الواقع ضئيل جدا بالنسبة الى ما لا يمكن تفسيره
على هذا الأساس .

الفعل المنعكس الشرطى :

لاحظنا فى الفعل المنعكس أن هناك مؤثرات ، وقد بينت التجارب
أن استعداد الكائن الحى للتأثر بهذه المؤثرات يمكن أن يكون طبيعيا فطريا
ويمكن أن يكون مكتسبا كما توضح التجربة المشهورة التى أجراها
«بافلوف» ؛ اذ كان يجرى تجارب على الكلاب ، ولاحظ أن لعاب الكلب

يسير لمؤثرات أخرى غير المؤثرات الطبيعية ، فأجرى التجربة الآتية ، وهى :
كان يدق جرسا فى نفس الوقت الذى يقدم فيه الطعام للكلب ، وبعد تكرار
هذا العمل عدة مرات لاحظ أن دق الجرس وحده كاف لاسالة اللعاب .
ويلاحظ أن الطعام هو المثير الطبيعى لسيلان اللعاب ، وأن صوت الجرس
ليس مثيرا له ، ولكن اقتران صوت الجرس بالطعام ، وتكرار هذا الاقتران
جعل صوت الجرس مثيرا كافيا لاسالة اللعاب ، وسيلان اللعاب لصوت
الجرس يسمى فعلا منعكيا شرطيا ، لأنه حدث بشروط معينة ، وهى تكرار
اقتران سماع صوت الجرس مع رؤية المثير الطبيعى .

ويرى السلوكيون أن تعلم الانسان والحيوان مبنى على تكوين أفعال
منعكسة شرطية ، أى أنهم بنوا تفسيرهم لسلوك الانسان المعقد على وحدات
بسيطة . وهم فوق ذلك ينظرون الى الانسان نظرتهم الى «الاستتور» السابق
الذكر ، فكلاهما فى نظرهم آلى السلوك ، الا أن أحدهما بسيط والآخر
معقد ، ومعنى هذا أن السلوكيين اعتبروا أن الفعل المنعكس هو وحدة
السلوك ، وعلى أساس هذه الوحدة يتركب السلوك الانسانى المعقد بكافة
درجات تعقيده .

ولكن قل من يقبل هذا الرأى لاعتبارات عدة ، منها أن عملية تكوين
الفعل المنعكس الشرطى ذاتها ليست عملية آلية ، وانما هى عملية شعورية
تتدخل فيها المراكز العليا للمجموع العصبى ، ومنها كذلك أن المثير
المكتسب اذا تكرر عددا من المرات دون أن يصحبه المثير الطبيعى فان قوة
المثير المكتسب تضعف ، وتزول فى أغلب الحالات ، فكان الأفعال المنعكسة
الشرطية ليست لها نفس الآلية الموجودة فى الأفعال المنعكسة الطبيعية .

الأفعال الغرضية :

سبق أن ميزنا بين السلوك الآلى والسلوك العتلى على أساس النظرية
الغرضية أو « الهورمية » ورأينا أن بعض أنواع الحركات عند الانسان آلى
وسميناه بالأفعال المنعكسة ، كانكماش حدقة العين لازدياد الضوء الواقع
عليها ، وبعضها غير آلى ، كعمليات التفكير ، والحكم ، والرغبة ، وغير ذلك .
وسميناه النوع الأخير « سلوكا » ونحتفظ نحن بكلمة السلوك للسلوك

العقلي أو لمظاهر الحياة العقلية ، رغم أن السلوك عند السلوكيين لا يخرج في طبيعته عن الحركة الآلية أو الميكانيكية .

ويمكننا أن نفترض الآن أن سلوك الكائنات الحية الدنيئة — اذا خرج عن نطاق الحركة الآلية أو الفعل المنعكس — يرمى الى غرض ولو كان من نوع بسيط جدا . ونقصد بالغرض ما يقابل « رغبة » مهما كانت درجة وضوحها ، فالعصفورة « تريد » أن تضع البيض ، والحمامة « تريد » أن تدافع عن صغارها . ولناخذ لذلك مثلا آخر وهو سلوك نوع من البرقات يتسلق أغصان نوع من الشجر ليأكل الفص من ورقه وبعد أيام يتجه اتجاها مضادا لاتجاهه الأول ؛ فينحدر ليأكل الورق الجاف .

حاول نفر آخرون من أصحاب النظريات الآلية أن يفسروا حركات هذا الحيوان على أنه يتجه مرة نحو الضوء ، وذلك عند تسلقه الى أعلى ، ويتجه مرة أخرى منصرفا عن الضوء وذلك عند انحداره الى أسفل ، ويتغير الاتجاه بفعل التغيرات الكيماوية الداخلية الناتجة عن نموه و عما أخذه من غذاء ووصل اليه من نمو جعل حساسيته الكيماوية للضوء تتغير من وقت لآخر ، وليس هذا مكان التوسع في بسط أو نقد هذا الرأي المعروف بنظرية الاتجاه « Tropism » ، ولكن بدون أي تعسف كهذا في التفسير يمكن أن نقول : ان الحيوان الصغير الضعيف يبحث عن الطعام الغض الذي يناسب معدته فاذا قوى بحث عن طعام جاف ؛ فنفسر سلوكه على أساس غرض يرمى اليه ، وعلى أساس النزوع أو الاندفاع أو التوجه لتحقيق هذا الغرض . وقد وجه « مكندوجل » حملات شديدة الى محاولات « لوب » في تفسير كل مراتب السلوك عند الانسان والحيوان على أساس نظرية الاتجاه ، وهي شبيهة بحملاته التي وجهها ضد النظرية السلوكية ، وقصد بهذا أن يقضى على الاتجاهات المادية في تفسير السلوك واثبات الاتجاه الغرضي (١) .

ويظهر الغرض بوضوح أكثر كلما ارتقىنا في سلم التطور ، فيظهر

(1) McDougall : An Outline of Psychology

: Modern Materialism

: The Battle of Behaviorism

الغرض في سلوك الكلاب أوضح منه في سلوك الحشرات، وفي سلوك القردة أوضح منه في سلوك الكلاب وهكذا .

والذي يمكن أن نستنتجه من هذه الدراسة السريعة أن الانسان والحيوان يشتركان في كل أنواع « السلوك » فالانسان عنده الكثير من أنواع « السلوك » الآلى الصرف الذى أشرنا اليه تحت اسم الأفعال المنعكسة ، وهذه الأفعال المنعكسة تتعدل مكونة الأفعال المنعكسة الشرطية ، وهذه الأفعال المنعكسة لها وظائفها الحيوية (البيولوجية) ، ومن هذه الوظائف مثلا الوظيفة الوقائية ، فالعين تطرف من مرور حركة فجائية سريعة لتقى نفسها ، وتنكمش الرجل عند وخز الابرة لحمايتها وهكذا .

ويدخل تحت الأفعال الآلية ما نلاحظه في الأطفال من تحريك للرجلين حركات مختلفة مستمرة لا نظام فيها ولا توافق ، وتسمى هذه الحركات بالحركات العشوائية « Random Movements » ، وربما كانت الحكمة في هذه الحركات أن الطفل يولد ضعيفا ناقص النمو ، فهذه الحركات تسرن عضلاته وتساعد على النمو ، وتصله كذلك بالعالم الخارجى .

وربما قيل : ان الحركات الآلية — من منعكسة وعشوائية — لها كما قلنا غاية أو وظيفة ترمى اليها ؛ ولكن الرد على هذا هو أن الغاية في هذه الحالة ليست كائنة في « ذهن » الحيوان .

وعند الانسان — عدا ما تقدم ذكره من الاستعداد للقيام بحركات آلية — أنواع السلوك التى يظهر فيها الغرض بوضوح ، ولأنواع السلوك هذه استعدادات فطرية سنفصلها في الصفحات التالية .

على أنه يجب علينا أن نشير هنا الى أن هناك مجموعة من العلماء لا يأخذون بالطريقة التبعية أو المقارنة ، ولا يسلمون بوجود نوع من الشبه بين الانسان والحيوان . فهم يدرسون الانسان على حدة ، وكل نوع من الحيوان على حدة . ويرون أنه لا ضرورة لعقد موازنة كالتى أشرنا اليها . وهذه مدرسة لها تابعوها ، وهى منتشرة فى أمريكا . أما المدرسة التى تأخذ بطريقة التبع والموازنة فانها موجودة فى انجلترا ، ولها قوتها ، ولها تابعوها .

المراجع

1. Heath : How we Behave.
2. Holmes : The Intelligence of Animals.
3. Kohler : Mentality of Apes.
4. McDougall : The Battle of Behaviorism.
5. " " : Modern Materialism.
6. " " : An Outline of Psychology.

الفصل السابع

تحليل السلوك الفطري

مقدمة:

ذكرنا في الفصل السابق أهم ما وجهنا اليه «دارون» بأسلوبه الذي أدى الى كشف نظرية التطور ، والذي أدى الى ادراك الصلة ، والاستمرار ، والتشابه بين مراتب الكائنات الحية المختلفة . وكان هذا الكشف مصدر الوحي لعلماء النفس الحديثين وتملى رأسهم « وليم جيمس » و « مكدوجل » وغيرهما ، فدرسوا — كما قلنا — سلوك الحيوان في مراتبه المختلفة ، وهدموا الفكرة القائلة بوجود فرق أساسى بين الانسان والحيوان ، والتي تتضمن أن الانسان محكوم بعقله أو بذكائه ، والحيوان محكوم «بغريزته» ووصلوا الى أن « الغرائز » ثابتة في تركيب العقل البشرى ، وأن الذكاء — بظهوره ونموه في مراحل التطور — لم يحل محل « الغرائز » وانما كان عاملا مهما في ضبطها ، وتعديل توجيهها . وهذا الكشف لم يبرز بهذه الصورة الواضحة الا في أوائل القرن الحالى ، ولعل السبب في تأخر ظهوره هو تعقد سلوك الانسان ، وكثرة العوامل التى تتحكم فيه ، مما جعل طبائع الانسان لا تظهر عادة بصورها النقية الواضحة .

وحيث اننا نساهم بالاتصال بين الحيوان والانسان فخير طريقة لدراسة السلوك الغريزى (1) فى صورته النقية هو أن ندرسه أولا فى الحشرات والحيوان.

(1) غريزة معناها طبيعة ، وغريزى معناها طبيعى ، وذلك بحسب ما جاء بالقاموس المحيط ، فالسلوك الغريزى معناها السلوك الطبيعى ، أو الفطرى ، أو السلوك غير المتعلم . ولا يشك انسان فى أن هناك تشكيلات من السلوك الغريزى واضحة عند الحيوان والحشرات . وأقل وضوحا من هذه الوجيهة عند الانسان .

مثال للسلوك الغريزي أو الفطري :

قام «فابر» بدراسة نوع من الزنابير اسمه «الزنبار الوحيد» بعد خروجه مباشرة من طور العذراء . خرج الزنبار وأراد أن يضع بيضه ، ولكن قبل أن يفعل ذلك بحث عن نوع من الديدان ، ولسع الدودة التي وجدها في مركز من مراكزها العصبية ، وأحدث بها شللاً ؛ ولكنه لم يقتلها ، ثم أخذها ووضعها في عشه ، وكرر هذه العملية الى أن امتلأ العش بالديدان ، ووضع البيض عليها ، وأقل العنق بالطين ثم مضى الى حال سبيله . فقس البيض ، وخرجت منه الديدان ، فوجدت لحماً طازجاً محفوظاً ، لا ميتاً ولا متعفناً فعاشت عليه الى أن كملت دورتها ، وخرجت الى الحياة تقوم بنفس العملية التي قام بها أسلافها . هذا السلوك المعقد الذي لم يخطيء فيما اتجه اليه ، والذي لم يسبق أن تعلمه الزنبار ، والذي تم بغاية الدقة وبدرجات كبيرة من التعقيد يسمى سلوكاً غريزياً ، وهو سلوك فطري يدل على أن الزنبار لم يتعلمه ، وبدليل أنه عام في أفراد الجنس كله ، وبدليل أنه ثابت من حيث وقت ظهوره ودقة ترتيبه . وفوق هذا كله فإنه يؤدي غاية حيوية في تحقيق استمرار النوع .

تحليل السلوك الغريزي أو الفطري :

وإذا لاحظنا الحشرات على اختلاف أنواعها نجد أنها لا تضع بيضها الا حيث تخرج صفارها فتجد الطعام الصالح لها ، وواضح هنا أن الحشرات تسترشد في هذا العمل بالادراك . فادراك رائحة اللحم العفن يجذب نوعاً من الذباب لوضع بيضه عليه ، ورائحة الجبن الطازج كذلك تجذب الذباب المعروف لنا لوضع بيضه عليه^(١) ، وألوان الزهور تجذب النحل الى تمييز الزهور التي بها رحيق من غيرها ، فتندفع اليها وتمتص منها الرحيق .

(١) وهذا هو السبب في أن الجبن الذي يصنع عندنا في القرى يتكون فيه الديدان ، فالديدان ما هي الا يرقات الذباب عند فقس بيضه ، ثم تتحول هذه اليرقات بدورها مكونة ما يسمى بـ «الدعيس» ، وما «الدعيس» هذا الا ذباب صغير الحجم ، ولنفس السبب جرت عادة الناس على وضع قطعة من الليف على فوهة الوعاء الذي يحفظ فيه الجبن ، فهذا الليف يساعد على خروج (الدعيس) منه .

فالفعل الغريزي يتميز هنا بادراك الزهور ؛ بل بتسييز زهور خاصة من غيرها .
وقد درست حياة الحشرات من هذه الناحية دراسة وافية ، فتبين أن بعضها على درجات كبيرة من التعقيد ، كما نرى في الحياة الاجتماعية للنحل والنمل مثلا ، وفيما يقوم به النوعان من ادخار وغير ذلك .

وفي المراحل الراقية عن مراحل الحشرات نجد الطيور والحيوانات الثديية . وكثيرا ما نجد لدى الطيور أفعالا غريزية قليلة التعديل ، فالعصفورة بعد أن تلقح تطير في جد واجتهاد باحثة عن الأعشاب الجافة وقطع الطين ، وتظل تبني عشها باحكام ، وعند ما تفرغ من بنائه ترقد فيه لتضع البيض . فاذا باضت رقدت عليه ليستمر دافئا . فاذا فقس عاملت صغارها بحنو بالغ وأطعمتها الى أن يتم نموها وتكبر وتنصرف الى سبيلها .

وكذلك السنجابي وهو حيوان ثديي شبيه بالقط له ذيل كبير ، ويعيش في الأشجار في البلاد الباردة من المناطق المعتدلة . وأحب شيء اليه هو البندق ، ومن عاداته أن يجمع البندق ، ويحفظه في عشه ، وبهذا يجده اذا قلت كمياته في الشجر أو وجدده غير ناضج . اذا أخذناه من صغره ، وعزلناه عن بقية أفراد جنسه ، ثم أعطيناه كمية من البندق — بحيث يكون قد رأى البندق لأول مرة في حياته — فانه يكسر بعضه ويأكله ، ثم يحفر حفرة ليخبيء فيها ما تبقى . ومن الأفعال الغريزية أيضا ما نلاحظه من سلوك القط في حضرة الكلب ، ومن سلوك كل من القط والفأر في حضرة الآخر (١) .

توضح لنا كل هذد الأمثلة ما يطلق عليه عادة اسم « الغريزة » ومن ثم ننتقل الى تعريفها .

عرف « هربرت سبنسر H. Spencer » « الغريزة » بأنها فعل منعكس مركب ، أو بأنها سلسلة متعددة الحلقات ، وكل حلقة منها تكون فعلا منعكسا بسيطا ، فرؤية العشب الجاف بحسب رأى « سبنسر » تؤدي الى التقاطه ، والتقاطه يؤدي الى بنائه في هيئة عش ، وبناء العش يؤدي الى الرقاد فيه ، والرقاد فيه يؤدي الى وضع البيض . وهكذا يصبح السلوك الغريزي في نظر « سبنسر » مجموعة من الحركات الآلية يتبع بعضها بعضا . وكل حركة منها

(١) يرى بعض الناس ان هذا سلوك مكتسب وليس فطوريا .

وراضح ان رأيهم هذا بعيد المنال ، وأنا لست ممن يوافقون عليه في الوقت الحاضر .

رد فعل لمؤثر ، وكل حركة تصير بدورها مؤثرا لرد الفعل التالي . واذ ابتدأت من سلسلة العمل الغريزي حلقة تتبعها الحلقة الثانية فالثالثة ، وهكذا بالترتيب .

ولكن يعترض على هذا الرأي بأن الأفعال المنعكسة يمكن أن تتم دون أن يكون للشعور فيها دخل . وأما الفعل الغريزي فيصاحبه الشعور بمظهره الثلاثة المعروفة ، ففيه الإدراك ، وفيه الوجدان أو الانفعال ، وفيه النزوع أو الرغبة أو الاندفاع . وقد رأينا فيما سبق أن النحلة تدرك الزهرة ذات الرحيق ، والذبابة تدرك رائحة الجبن أو اللبن ، والزنبار يدرك نزع الفريسة التي يشلها ثم يسحبها ، وفي أثناء سيره يدرك اقترابه من عشه ، وبعد دخوله يضع الفريسة ، ثم يدرك أن العش قد امتلأ فيسده ، وكذلك العصفورة تدرك العشب الصالح لبناء العش وهكذا . فعنصر المعرفة أو الإدراك موجود مع الفعل الغريزي . ومن الملاحظات الغريبة أن الزنبار بعد أن يبني عشه يطير في شكل حلقات تتسع بالتدرج كما لو كان يدرس المنطقة التي بنى عشه فيها حتى تسهل عودته إليه (١) .

ويغاب أن رؤية الزهرة أو شم الجبن أو غير ذلك يستثير ناحية شعورية أو عقلية، ويشير انتباه الحيوان، وفي الوقت نفسه يثير استعدادات «فسيولوجية» للقيام بعمل خاص ، فلعصفور استعداد جسمي «فسيولوجي» خاص يدخل كعامل هام في بعض السلوك الغريزي ، فهو يرى الطين ، أو يشم رائحته ، ويلقطه بمنقاره ، وللزنبار استعداد «فسيولوجي» جسمي خاص فله حمة يلسع بها فريسته ، وله كذلك مجموعته العصبية ، فهو مهياً لأن يتأثر بمؤثرات حسية معينة أكثر مما يتأثر بغيرها . وكذلك نجد أن القط يتأثر لرؤية انفار أكثر مما يتأثر لرؤية غيره من الأشياء (٢)

وفوق ما تقدم نجد الوجدان (٣) ظاهراً في الأفعال الغريزية ، ولو أنه لا يسهل علينا رؤية مظهره في الحشرات أو الطيور ، وذلك لأن تركيب جسم

(١) (٣٥٢،١) وهذا يتفق تماماً مع ما اتجه إليه العلماء الأمريكيون للتحدث عن الدوافع الأولية دون « الغرائز » (راجع صفحة ٤٢ - ٤٦ من كتاب الدوافع النفسية « طبعة أولى » للدكتور « مصطفى فهمي » (غير انهم راوا استعمال مصطلح « الدوافع » بدلا من مصطلح « الغرائز » وهذا ما لانعارض فيه. ولو أن ما صاحب كلمة instincts في تاريخ العلم باللغة الانجليزية ليس هو بعينه ما صاحب كلمة « غرائز » في تاريخ العلم باللغة العربية .

الحشرة أو الطير بعيد عن تركيب جسمنا لدرجة تجعلنا لا ندرك ما عنده من حالات انفعالية الا بشيء من المران والجهد .

ونحن نعلم أن قرب الحيوان منا في سلم التطور يقربه منا في الشكل والتركيب الجسمي ، ويمكننا في الوقت نفسه من ادراك العلامات الظاهرة لانفعال ، فكلنا ندرك ان كان الفرد منا غاضبا أو فرحا أو حزينا ، وندرك هذا بوضوح أقل في القردة ، ولكننا مع ذلك ندركه الى حد ما . وندرك انفعالات الكلاب بوضوح أقل مما ندرك به انفعالات القردة ، وندرك في القطة والخيل أحيانا بعض دلائل الانفعال ، فندرك فيها السرور والزهو والخوف والألم وغير ذلك . وبوضوح أقل من هذا ندرك ما يظهر من علامات الانفعال على أنواع الكائنات التي تقع في مراتب تطور أقل من المراتب السابقة ، فندرك فيها الخوف والألم بعض الادراك . وهكذا تقل درجة ادراكنا لانفعالات الحيوان كلما بعد عنا في سلم التطور ، فاذا وصلنا الى الزنبار يصعب علينا أن نلاحظ ما قد يكون عنده من حالات سرور عند رؤيته فريسته ونجاحه في لسعها وحملها الى عشه . ويصعب علينا رؤية ما قد يكون عنده من علامات الغضب أو الخوف . ومع ذلك فاذا دققنا الملاحظة فاننا نرى هذه العلامات بعد المران وبذل الجهد .

وأضنا جميعا نرى أن انفعال الخوف ظاهر في النار عندما يرى القط ، وانفعال الغضب ظاهر في الكلاب عندما ترى القطة ، وانفعال الغضب ظاهر في الطير عندما تقترب لنغصب منه صغاره . وكذلك يرى المدققون والخبيرون انفعالات مختلفة في الثعابين والتماسيح والحشرات وغير ذلك .

وقد قام دارون^(١) بدراسات واسعة النطاق على أنواع الحيوان والانسان ، وقد بين مواقف التحدي والخوف والغضب والتهديد والحنو والكراهية في الحيوان ، وبين مظاهر هذه جميعا عند الانسان وأنواع الحيوان . وبين أوجه الاشتراك التشريحية ، وأوجه الشبه التعبيرية في هذه جميعا وبمى دراسة يجدر بكل محدث أن يدرسها رغم ما يقال عنها من أنها قديمة .

وأما الناحية النزوعية أو الحركية^(٢) فانها ظاهرة في الأفعال الغريزية .

(١) Charles Darwin : The Expression of the emotions in man and animals : Thinkers Library.

(٢) نحن هنا نقول : ان النزوع هو الحركة ، وهذا تجاوز منا ، فالحركة هي التعبير الظاهري الذي يؤدي الى تحقيق النزوع .

فرؤية القط للفأر تشير في القط انفعال الغضب ، وفي الحال نجد القط مندفعاً للاقتراس ، فاذا هرب الفأر انطلق القط وراءه وظل هذا يهرب وذلك يتأخر الى أن ينجح الفأر في الهروب ، أو ينجح القط في الاقتراس ، ثم يهدأ القط هدوءاً تاماً .

نرى من هذه الأمثلة أن مواقف أو مؤثرات حسية خاصة تستثير في الحيوان استعدادات عقلية وعصبية ، وهذه تؤدي الى شدة انتباه الحيوان الى هذا الشيء أو الموقف الذي صدر عنه التأثير ، ونلاحظ في أثناء هذا مظاهر انفعالات خاصة ، كالغضب ، أو السرور ، أو الألم . ونلاحظ أيضاً سلوكاً خاصاً كالهرب أو الاقتراس ، أو على الأقل نلاحظ نزعة نحو هذا السلوك . ونقصد بالنزعة هنا أن يشعر الفرد بالرغبة فقط ، ولكن قد يكون هناك ما يؤخره عن تنفيذها ، وتنفيذ النزوع يكون عادة بالحركة الظاهرية ، أما النزوع ذاته فهو حالة داخلية نفسية . فاذا أهان رئيس ما أحد مرءوسيه بغير حق فالسلوك الطبيعي للمرءوس هو أن ينتقم من رئيسه ، ولكن لا يمكنه ذلك ، فيشعر بنزعة الى ذلك دون القيام بتحقيق هذه النزعة (١) .

لهذا كله عرف « مكدوجل » الغريزة بأنها « استعداد عصبى نفسانى يجعل صاحبه ينتبه الى مؤثرات من نوع خاص ، ويدركها ادراكاً حسياً ، ويشعر بانفعال من نوع خاص عند ادراكها ، ويسلك نحوها مسلكاً خاصاً أو على الأقل يشعر بنزعة لأن يسلك نحوها هذا المسلك » .

هذه ترجمة تكاد تكون حرفية لتعريف « مكدوجل » الذي جاء في كتابه علم النفس الاجتماعى (٢) . واذا تأملنا هذا التعريف نجد أنه لا يعنى أن الغريزة « شىء » يمكن تحديده ، وإنما هى استعداد للقيام بنشاط ، وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول : انها صفة حيوية خاصة .

ورغم أن هذا التعريف قوبل بالحماس لدى علماء النفس عند أول ظهوره في أوائل القرن الحالى نجد الاتجاه الحديث لا يتقيد بكل هذه التفاصيل التى أدى الى ظهورها تأثير التعريف بملاحظة سلوك الحشرات والحيوان . ومؤلف هذا الكتاب نفسه لا يميل الى التقيد به وان كان يميل الى الاسترشاد به .

(١) راجع الفقرة الثانية من « الناحية الشعورية » فى صفحة ٤٦ من

كتاب الدوافع النفسية ، الطبعة الأولى ، للدكتور « مصطفى فهمى »

McDougall : Social Psychology.

ويمكن أن نلخص الاتجاه الحديث في أن الحيوان إذا وجد في موقف معين — وكان في حالة نفسية وجسمية خاصة — فإنه يحتمل أن يقوم بسلوك لا يشترط أن يكون قد تعلمه في الماضي . فالغريزة في هذه الحالة فرض علمي ويمكن تعريفها بأنها استعداد⁽¹⁾ « Tendency » الكائن الحي للقيام بسلوك خاص أو بتشكيلة سلوكية خاصة في موقف معين أو في مجال معين (بحسب لغة الجشتالتيين)

وحيث ان السلوك الغريزي أو الفطري يتضمن تكييفا للكائن الحي ككل ، وحيث انه يتضمن أيضا عند تحليله عناصر الإدراك والوجدان والنزوع فإن تعريفه بأنه فعل منعكس مركب تعريف غير مقبول .

وهناك أدلة أخرى ندحض بها فكرة «سبنسر» منها أن السلوك الغريزي أو الفطري لا يسير دائما في الاتجاه الصواب ، بل يخطيء أحيانا ، فقد تضل الحشرة طريقها ، وقد تخطيء مرماها . ومنها أن أجزاء السلوك الغريزي أو الفطري لا تسير دائما في ترتيب واحد . ومن التجارب الطريفة⁽²⁾ ما أجرى على نوع من الزنابير يبني عشه من عدد من الخلايا ، وبعد أن ينتهي من إحدى الخلايا يأتي بالعنكب الصغيرة ، ويضعها فيها الى جانب البيضة — التي يكون قد سبق أن وضعها — ويسدها ، ثم ينتقل الى خلية أخرى فخلية ثالثة . وهكذا . فلو أن السلوك الغريزي تسير حلقاته بترتيب آلي واحد لا يتغير لما عاد الزنبار في أثناء عمله الى اصلاح ما سبق له اتمامه .

ولكن القائم بالتجربة كان ينتظر الى أن يتم الزنبار عمله في خلية ما فيخذشها بدبوس . فاذا أتى الزنبار لعمل الخلية التالية ، ووجد أن الانسان قد أفسد عليه عمله عاد اليه فأصلحه ، ثم سار في عمل الخلية التالية ، وكرر المجرب تجربته هذه عددا من المرات أيقن بعدها أن تتابع أجزاء السلوك الغريزي ليس تتابعا آليا . ولاحظ المجرب أن الزنبار عندما يعود ويرى أن الخلية التي تمت قد أصابها التلف فإنه يقوم بحركات ، ويخرج أصواتا تدل غالبا على ما يشعر به من غضب وتضايق .

(1) Is the Doctrine of Instincts Dead? The British Journal of Educational Psychology 1941, 1942, 1943.

(2) McDougall : Energies of men.

تعديل السلوك الغريزي أو الفطري :

عرفنا أنه من السهل علينا ملاحظة السلوك الغريزي أو الفطري في الحيوانات الدنيئة ، كالحشرات ، وفيما هو أرقى منها قليلا ، كالطيور ، وذلك لأن السلوك الغريزي يوجد عندها في صورة الفطرة . وأما الانسان فان نشاطه الغريزي يتعدل كثيرا بفعل التدبير والذكاء (١) .

ويمكن للتبسيط عرض أنواع التعديل في تصنيف كالاتى : —

النوع الأول — تعديل من الناحية الادراكية ؛ فبعد أن كانت الدوافع الغريزية تستثار بمثيرات طبيعية فطرية يمكن استثارتها في مواقف غير المواقف الطبيعية .

النوع الثانى — تعديل من الناحية النزوعية .

النوع الثالث — تعديل بسبب استثارة دوافع مختلفة في وقت واحد .

النوع الرابع — تنظيم الاستعدادات الغريزية وانفعالاتها حول شىء لتكون ما يسمى بالعواطف ، وسنتناول بالشرح الآن أنواع التعديل الثلاثة الأولى تاركين النوع الرابع لدراسة مستقلة مطولة في فصل « العواطف » .

النوع الأول : التعديل من الناحية الادراكية :

نلاحظ أن بعض ما كان يستثير السلوك الغريزي أو الفطري قد لا يثيره فالصوت العالى مثير طبعى لانفعال الخوف ، أو غريزة الهرب ، ويستثار الخوف بالأصوات العالية ؛ سواء أكان مقترنا بخطر يؤذى الفرد أو غير مقترن . ولكن قد يتعلم الفرد بالتجربة أن الصوت العالى غير مقترن بخطر فيسمعه دون خوف ؛ كما يحدث في المحاجر والمناجم ، فالعمال يعملون ولا يبدو عليهم أى خوف . كذلك الدواب التى تعيش في القرى يبدو عليها الخوف اذا أحضرت للمدن لأول مرة وسمعت صوت السيارات وغيرها ولكنها تعتاد ذلك وتألفه بمرور الزمن ، فالأصوات التى كانت مثيرا طبيعيا للخوف صارت لا تثيره .

وكذلك يحدث أن الأشياء التى لم تكن تثير تشكيلة سلوكية بطبيعتها قد تصير قادرة على اثارتها . فالحمام في ميادين لندن مستأنس الى حد

(١) نسي المحذون من علماء النفس وعلماء الانثربولوجيا ما قالت به مدرسة الغرائز من قابليتها الشديدة للتعديل ، ونسوا ان هذه القابلية قد تؤدى الى تمويه الجوهر .

كبير ، فتجده يقف على أكتاف الناس ، وعلى أيديهم ، وعلى رؤوسهم ، ويفعل هذا بغاية الهدوء والاطمئنان ، وذلك لأن الانسان في ميادين لندن لا يثير الخوف عند الطير . فالانسان اذن ليس مثيرا طبيعيا للخوف ، ولكن في الجهات التي تعودت صيد الطيور نجد أن الطير يهرب لمجرد رؤية الانسان ، وذلك لأن رؤية الانسان اقترنت بصوت بنادقه المزعجة ، فصارت رؤيته مزعجة ، أى مثيرة لغريزة الهرب . كذلك المدرس ليس مثيرا طبيعيا للخوف عند التلاميذ . ولكن اقتران المدرس بالايذاء في ذهن التلميذ يجعل المدرس مثيرا للخوف .

وقد أجرى « جيمس » تجربة بسيطة على أفراخ صغيرة (كتاكت) كان يرمى لها الحب وهو يمشى فكانت تتبعه . واستمر على هذا مدة طويلة ، فكانت الفراخ — وقد كبرت — تمشى ورائه اذا رأته سواء أرمى لها الحب أم لم يرم . وهذا المثال — ولو أنه لا يدل مباشرة على تعديل الغريزة — يجعلنا نقول : ان « وليم جيمس » قد حل في نظر الفراخ محل الحب . فاستثارة السلوك الغريزي أو الفطري تتعدل اذن عن طريق الترابط (Association) الذى سنسميه فيما بعد ترابطا بالاقتران (Association by-Contiguity) وقد يستثار الاستعداد الغريزي أو الفطري عن طريق الترابط بالتشابه « Similarity »

فالطفل الذى يستثير خوفه شرطى في الطريق قد يستثير خوفه أى شخص مرتد كسوة رسمية ، كالسعاة ، ورجال المطافىء ، وغيرهما . وأعرف مثلا كان يخاف من الظلام وهذا خوف مكتسب ، ثم رأى رجلا أسود فخاف منه خوفا شديدا ، فلما سأله : لم تخاف منه ؟ قال لأنه خرج من الظلام . فهذا خوف من الرجل الأسود ناتج من الاقتران بالتشابه .

(1) ليس معنى ذكر الترابط هنا اننا نؤمن بفكرة الترابطيين كنظرية كاملة لتفسير جميع الظواهر العقلية ، فنظرية الترابطيين — كما كانت شائعة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر — تقوم على نظريات عن العقل والمخ والصلة بينهما تتضمن تفسيرات « فسيولوجية » لترابط الأفكار بعضها مع بعض ، ولا يقر كل التفسيرات احد من علماء العصر الحاضر . غير اننا نقصد بالترابط الاقترانى حدوث الوقائع مجتمعة وأدراكها مجتمعة . وهذا لا يتناقى مع اتجاهات المدارس الحديثة لعلم النفس ، كمدرسة الجشتالت .

ويلاحظ أن ادراك علاقة التشابه عملية عقلية خاصة بالحيوانات الراقية . والانسان قادر على ادراك علاقات كثيرة دقيقة التشابه . وهذا مما يجعل احتمال تعدل التشكيلات السلوكية الفطرية في الانسان كبيرا جدا ، لأن الاقتران بالتشابه يفتح له ميادين عدة لا تتوفر لغيره من الكائنات .

النوع الثاني : التعديل من الناحية النزوعية :

هذا النوع من التعديل واضح جدا في حياة الانسان ، ولناخذ لذلك مثلا الاستعداد للمقاتلة ، وما يصحب استثارته من انفعال الغضب ، ويستثيره كل ما يقف في سبيل تحقيق النزعات الأخرى . فاذا دفع الجوع بحيوان الى البحث عن الطعام ثم وجده ، وقبل أن يتناوله اختطفه منه حيوان آخر - أى أن الحيوان الآخر لم يسمح له بأشباع دافع الحصول على الطعام ، حيث وقف في سبيل تحقيقه - كان هذا مدعاة لغضب الأول وهجومه على الثاني لضربه وعضه ومقاتلته . كذلك الحال في الانسان اذ يثار انفعال الغضب لديه في مثل هذه المواقف ، وخصوصا في الصغر ، ويكون سلوك الطفل بالضرب أو المقاتلة . ولكن يتعلم الانسان بالخبرة طرقا أخرى للسلوك كما يكتسب مثيرات أخرى للغضب . فالذي يثير غضب البالغ قد يكون اتهامه بأن ما يقوله من الشعر مسروق (موقف مثير بالاكتماب) وقد يكون سلوكه في هذه الحالة نظم قصيدة لهجاء الناقد . ومما يدل على تعدل الاستعداد الغريزي في ناحيته النزوعية تنوع طرق القتال ، فهناك الملاكمة ، والمصارعة ، والمبارزة ، واستعمال المسدسات ، والسب ، والهجاء ، وتديبير المؤامرات ، والايقاع ، وترويج الشائعات ، وحرب الأعصاب ، وحرب الميكروبات ، والحرب الذرية ، وغير ذلك .

وليبيان تعدل الاستعداد من الناحية النزوعية عند الحيوان نشير الى ما سبق أن ذكرناه عن نوع من الزنابير تبني أثنائها من الطين فجوة بيضاوية الشكل ، ثم تضع فيها بيضة واحدة ، وتقتل بعد ذلك العناكب الصغيرة ، وتحضرها لتضعها فيه ، وبعد أن تملأ الفجوة تسدها بحصوة صغيرة وبعض من الطين ، ثم تبني بجانبها فجوة أخرى ، وتضع فيها بيضة ، ثم تملؤها بالعناكب ، ثم تسدها ، وهكذا الى أن تعمل ما يقرب من اثنتي عشرة حجرة .

وبعد ذلك تلف كل هذا بغلاف من الطين والحصى لتحفظه . وهى تسير فى هذا بطريقة منظمة ، فتنتهى من خلية ، ثم تعمل الخلية الأخرى ، وهكذا . فقام أحد المشاهدين — كما قلنا — بخدش الناحية التى أتمتها ؛ فبدلا من ان تستمر فى عملها بطريقة آلية أصلحت ما أفسده الانسان ، وعادت الى عملها ، فعاد هو عدة مرات الى عمل خدش آخر ، فأصلحته . فلو أن السلوك آلى لما تناوله التعديل فى الناحية التنفيذية للنزوع .

ومن أهم عوامل التعديل من الناحية النزوعية ما يصيب السلوك من نجاح أو فشل ، فالسلوك الذى ينجح فى تحقيق الغاية يثبت ، وأما غيره فانه يضعف أو ينحى . فاذا أخذنا الاستعداد للمقاتلة نجد أن الانسان لا يمكن فى مجتمع متمدن أن ينجح بأساليب المقاتلة البدائية — من ضرب ، وعض ونهش — فيتعدل سلوكه بما يتفق مع اتجاهات المجتمع الرافى .

ويساعد على تعديل السلوك الغريزى أو الفطرى تغير الظروف تغيرا يجعل السير الطبيعى له غير كاف لتحقيق الغرض ؛ كما يتبين فى تجارب الزنابير التى سبقت والتى سيأتى ذكرها .

النوع الثالث لتعديل الفعل الغريزى أو الفطرى :

أما النوع الثالث للتعديل فهو ناشئ من استشارة أكثر من دافع واحد فى وقت واحد ، فيحدث أن يستثار البحث عن الطعام والخلاص من الخطر فى نفس الموقف . فالجائع يبحث عن الطعام ، فاذا وجد طعاما لا حق له فى الحصول عليه فقد يدفعه الجوع لأخذه ، ويمنعه الخوف (أو غير الخوف) من ذلك .

ويحدث أحيانا أن أرى شيئا غريبا ، فيدفعنى حب الاستطلاع لفحصه ودرسه ، ويمنعنى الخوف من القيام بذلك . ونجد فى بعض المواقف امكان الجمع بين دافعين كالمقاتلة والوالدية فى حالة العتب ، فاذا وجدت أن ابنك قد أتلف شيئا عزيزا على نفسك ، فالاتلاف يثير الغضب والمقاتلة، والابن يثير الوالدية والحنو ، فيكون السلوك فى هذا الموقف سلوك عتب ، لا سلوك توبيخ أو ضرب . وفى بعض المواقف الأخرى نجد من العسير

الجمع بين دافعين كما في البحث عن الطعام والتفرز ، فلا يسهل عليك أن تأكل ما تشمئز منه .

في كل هذه المواقف نجد أن السلوك الغريزي أو الفطري يتعدل بسبب ما يستثار معه من دافع غريزي أو دوافع غريزية أخرى في نفس الموقف .

مدى التعديل في انفعال الغريزي الواحد :

ذكرنا أن الاستعدادات الغريزية تتعدل من ناحيتها الإدراكية والنزوعية ، فإلى أي حد تتعدل في ناحيتها الانفعالية ؟

لتأخذ الاستعداد للمقاتلة ؛ نلاحظ أن الانسان يتعدل سلوك المقاتلة عنده من الناحية الإدراكية ، فيغضب الانسان اذا أودى أو أهين في كرامته ؛ أو اذا رأى ظلماً يقع على ضعيف وهكذا ، ويكون سلوكه ازاء هذا اما بالضرب أو النقد أو الشكاية للبوليس أو غير ذلك ، ومهما كانت الناحية الإدراكية أو النزوعية فان انفعال الغضب موجود ثابت لا يتغير من حيث النوع ، وان تغير في درجته .

كذلك الخوف ؛ فقد تخاف الظلام أو الأصوات المزعجة أو الرسوب في الامتحانات أو غير ذلك ، ولكن الخوف ثابت في كل حالة لا يتغير في طبيعته ؛ وان تغير في شدته .

وانفعال الحنو كذلك ثابت ؛ ولو أنه يكون أحياناً موجهاً نحو الأطفال أو الحيوانات أو العجزة أو المرضى او غير ذلك .

ففي حالة استثارة الدافع الواحد قد يحدث التعديل في أي ناحية ما عدا الناحية الانفعالية ؛ فانها ثابتة من حيث نوعها وان تعدلت من حيث درجتها .

فكأن ما قصد بالتعديل من الناحيتين الإدراكية والنزوعية هو كسب مشيرات جديدة في نوعها ، وكسب أنواع جديدة من السلوك . أما عن الناحية الانفعالية المصاحبة لدافع كالمقاتلة مثلاً فلا يمكن تغيير الغضب بانفعال آخر غيره ، وهكذا الحال في باقى (الفرائز) .

وثبوت الانفعال من حيث نوعه في السلوك الغريزي الواحد جعل

للافعال أهمية خاصة في نظر بعض علماء النفس ، فاتجهوا لتسمية « الغرائز » بأسماء افعالها ، فهم يتكلمون عن « غريزة » الغضب « وغريزة » الخوف .

السلوك الغريزي والذكاء :

ثبت لدينا أن السلوك الغريزي الواحد يتعدل عادة في ناحيته الإدراكية والنزوعية ، أو الاستقبالية والحركية . ونلاحظ أن هذا التعديل كثير الوقوع عند الحيوانات الراقية ، وكلما ارتقى الحيوان في سلم التطور زادت مرونته وقابلية سلوكه للتعديل ، أي قلت صلابة «غرائزه» وجمودها ، وزادت ليوتتها وقابليتها للتعديل . وهذه القابلية للتعديل مظهر من مظاهر الذكاء الذي نلاحظ زيادته كلما ارتفعنا في سلم التطور .

فالحشرات بها تشكيلات سلوكية جامدة الى حد بعيد ، وهي قليلة الذكاء ، قليلة القابلية لتعديل هذه التشكيلات . ولكننا مع ذلك رأينا في الملاحظة السابقة على الزنبار الذي يملأ عش بيضه بالعناكب أن لديه مقدرة على التصرف ، والتصرف عنوان الذكاء .

وقد قام « فابر » بتجربة على نوع من الزنابير سبقت الإشارة اليه (ص ١٤٥) ليرى مقدار ما لديه من ذكاء . ذكرنا أن هذا الزنبار يبني عشه ، ثم ينطلق الى نوع من الديدان ، فيلسع احداها لسعة تشلها ولا تقتلها . ثم ينقلها الى عشه ، ولكن لا يدخل بها العش مباشرة ، بل يتركها عند فوهته ويدخل ويدور في العش دورتين ، ثم يخرج ويسحب فريسته . ويقفل العش على الفريسة ، ويضع البيض عليها ، وينطلق هو الى سيئه . فاذا ما فقتت البيضة وجد الكائن الحي الناتج لحما طازجا يتغذى به حتى يكتمل نموه ويخرج من عشه .

لاحظ « فابر » هذا الزنبار يقوم بعمله على الصورة الفطرية الطبيعية ، ولكن عندما ترك الزنبار فريسته عند فوهة العش عمد « فابر » الى نقلها بعيدا ، فخرج الزنبار وبحث عنها ثم أعادها ، ولكنه لم يستفد مما حدث ، فتركها عند الفوهة ودخل ودار دوراته المعروفة ، ثم خرج فوجد أن

الفريسة قد نقلت . وهكذا كرر فابر نقل الفريسة ، وكرر الزنبار تركها بالباب ، ثم فحص العش الى أن عيل صبر « فابر » ، واعتقد أن قالب السلوك عند الزنبار جامد لا مجال فيه للتغير أو الاستفادة .

ولكن جاء بعد ذلك عالمان وهما « بكهام » وزوجته وكانا يتناوبان العمل . وكررا العملية التي قام بها « فابر » مرات عدة تزيد عن مائة الى أن استفاد الزنبار وأخذ الفريسة داخل العش ، ولم يتركها عند الفوهة .

فكان الزنبار أثبت أن لديه قسطا قليلا من الذكاء استعان به على الوصول الى غرضه رغم ما اعترضه من صعوبات .

ولا نرمى الى الاتيان بأمثلة من جميع مراحل التطور . ولكن الواضح أن القابلية لتعدل الفرائز تزداد كلما ارتفعنا في سلم التطور . وهذه القابلية لتعدل أو التعلم تتمشى مع ذكاء الحيوان ومع مرونة أعصابه ، لأن مرونة الأعصاب يمكن أن تكون مقياسا من مقاييس القابلية للتعلم .

ونلاحظ أيضا ملاحظة أخرى وهي أن القابلية للتعلم تتمشى مع مدة الطفولة . فالحيوانات الدنيئة تولد مكتملة النمو ، قادرة على أن تعيش قائمة بذاتها . وكلما ارتفعنا في سلم التطور نجد أن الحيوان يولد ضعيفا ، فالطيور التي هي عادة أذكى من الحشرات تولد ضعيفة ولها مدة طفولة ، ثم هي أكثر قابلية للتعلم من الحشرات ، كذلك القبط نجد أن مدة طفولتها أكبر من مدة طفولة الطيور ، وقابليتها للتعلم أكثر ، واستعداداتها السلوكية أقل من مرونتها . فإذا ارتفعنا الى مرتبة أرقى من السابقة ، وهي مرتبة القرود مثلا نجد أن غرائزها غاية في المرونة ، وأن قابليتها للتعلم كبيرة جدا ، وأن مدة طفولتها كبيرة أيضا يكتمل في أثنائها نمو الحيوان . فإذا ارتفعنا الى الانسان نجد أنه أضعف المخلوقات جميعا عندما يولد ، فإذا ترك وشأنه فإنه يموت . وهو يختلف في هذا عن الحشرات الصغيرة . ويصحب هذا الضعف مدة طفولة طويلة ، ومرونة كبيرة ، وذكاء عظيم ، وقابلية كبرى لتعدل السلوك ولتعلم .

وكل هذا يدلنا على أهمية مدة الطفولة من حيث التعلم ، ومن حيث سهولته وامكانه . ويدلنا أيضا على أن الاستعداد الغريزي والذكاء يعملان

جنباً الى جنب ، ويكمل كل منهما الآخر ، فاذا كان قالب السلوك الغريزي كاملاً ، وعلى درجة من الكفاية تكفى لمساعدة الحيوان على أداء وظائفه البيولوجية ، فان الحاجة للتصرف والذكاء تكون قليلة . فالحشرة التي تخرج من طور العذراء تكون قادرة — بما لديها من أساليب السلوك الفطرية الكاملة — على الاستقلال ، وعلى حماية نفسها ، والحصول على غذائها ، وعلى التوالد ، والتكاثر ، وحاجتها الى الذكاء قليلة . ولكن الحيوان الراقى كالقرد أو الانسان يولد ضعيفاً جداً وفي حاجة شديدة الى عناية والديه ، وعند ولادته تكون عنده استعدادات للسلوك ، ولكنها قليلة الكفاية تحتاج الى زمن طويل تنمر وتقوى فيه ، وهي ليست مصبوبة في قالب جامدة محدودة كما هي الحال في الديدان والحشرات ، فإزاء هذا نجد لدى الحيوان الراقى من الذكاء ما يعوضه النقص في اكتمال استعداداته الغريزية .

ويمكننا بوجه عام أن نقول كلما ارتفعنا في سلم التطور قل الجمود في قالب السلوك الغريزي ، وزادت قدرة الحيوان على التصرف ، وعلى الاستفادة من خبرته السابقة .

هذه هي العلاقة الكمية بين الاستعداد الغريزي أو الفطري والذكاء ، وبينهما كذلك علاقة وظيفية ترتبط بالعلاقة الكمية . فالدافع الغريزي هو الذي يدفع الكائن الحي للقيام بالسلوك اذا توافرت عدة شروط يرتبط بعضها بالموقف وبعضها يرتبط بالكائن الحي نفسه . وأما الذكاء فانه يرشده في أثناء هذا فيدرك الموقف ويعلمه ، وقد يتصرف على ضوء ادراكه تصرفاً يساعده على حسن تحقيق أغراضه . فاذا كان الرجل جائعاً فانه يبحث عن طعامه ، فاذا لم يجد طعاماً فانه يبحث ، ويفكر ، ويتأمل ، ويتذكر ، وقد يجري التجارب الى أن يصل الى طعام يسد به رمقه، فاذا كان الدافع الغريزي يدفع الكائن الحي فان الذكاء يرشده لتحقيق دوافعه . ولزيادة فهم الصلة بين الاستعداد الغريزي والذكاء نشبه الموقف كله برجل يريد أن يصل الى هدف معين في الظلام فيستعمل مصباحاً يضيء لنفسه به الطريق ، ويرشده حتى يصل الى هدفه سالماً .

ونظراً لاكتمال نمو الحيوان الدنيء ، وبساطة الظروف المحيطة به ،

ولتحدد الوسائل التي تقضى بها أغراضه تكون الحاجة الى الذكاء قليلة .
وأما الحيوان الراقى فنظرا لتنوع مطالبه ، ولتعدد الوسائل التي يمكن
تضاهي أغراضه بها ، ولتعدد بيئته تكون الحاجة الى الذكاء والتصرف كبيرة .
وبذلك ندرك أن بين الصلة الكمية والصلة الوظيفية للاستعدادات
الغريزية والذكاء تطابقا يكاد يجعلهما صلة واحدة .
ويمكننا أن نلخص الموقف بأن نقول : ان الاستعداد الغريزي هو القوة
الدافعة ، وأما الذكاء فانه القدرة المرشدة الموجهة .

تقسيم الاستعدادات الغريزية :

لم يكن من السهل الوصول الى تقسيم مرض للاستعدادات الغريزية
يتفق عليه علماء النفس أو عدد كبير منهم . ولعل السبب في هذا هو صعوبة
الفصل عند الانسان بين السلوك الغريزي الفطري والسلوك الغريزي
المعدل . فالانسان منذ أول وجوده يتأثر بما حوله ، وعند ولادته يتأثر
بميراث اجتماعي قوى^(١) ويتكيف تبعا لمعاملة من حوله ، وتبعاً لما عنده
من ذكاء وعوامل أخرى . لهذا كانت عملية الفصل بين هذه العوامل المتعددة
أمراً عسيراً ، وكان من المنتظر ازاء هذا أن يختلف الباحثون فيما يصلون
اليه من تقسيمات .

ولكن هناك بعض قواعد جرى عليها العلماء للتقسيم ، فعند بعض العلماء
نجد الأساس هو السلوك نفسه . فيكفي أن يكون السلوك الظاهري
غير مكتسب عن طريق التعلم ، ويكفي كذلك أن يكون عاما عند أفراد
الجنس كله ، حتى يعتبر سلوكاً غريزياً . ولهم عند الانسان قاعدة ثالثة وهي
أن يشترك معه في السلوك غيره من الحيوانات الراقية . ولكن هذه المجموعة
من العلماء ركزت عنايتها في السلوك نفسه أو الحركة الظاهرية التي يقوم
بها الحيوان . ولهذا السبب وضعوا قوائم طويلة بما سموه أشكال السلوك
الغريزي عند الانسان ومن هذه الأشكال ما يأتي : —

(١) يرى بعض الناس ان هذه الفكرة كافية لدحض فكرة الاستعداد
الغريزي ، ولكننا نؤمن بالاستعدادات أو الاتجاهات الفطرية ، ونؤمن كذلك
بأن أثر البيئة واضح منذ اللحظة الأولى .

الأكل - وضع الأشياء في الفم - المسك - الأخذ - الصيد
أو القنص - الجمع - المنافسة - المقاتلة - الغضب وغير ذلك .

ويتزعم هؤلاء العلماء « ثورنديك » اذ وضع للانسان ما يقرب من مائة
نوع من التشكيلات السلوكية الغريزية (١) .

وهناك جماعة أخرى من الباحثين نظروا الى الغاية الحيوية (البيولوجية)
التي يرمى اليها السلوك . والذي نتظره من دراسة تقوم على هذا الأساس
انه كلما بعدت الغاية قل عدد الغرائز ، وكلما قربت زاد العدد . فيرى
« فرويد » مثلا أن الغاية الأساسية في حياة الكائن الحي هي المحافظة على
النوع ، ولذا كانت « الغريزة » الأساسية هي « غريزة » التكاثر أو « الغريزة »
الجنسية . ويتفق مع « فرويد » في هذه الناحية كثيرون من أتباعه ممن كرسوا
حياتهم لدراسة الحياة الجنسية . ويرى آخرون أن هناك غايتين « بيولوجيتين »
أساسيتين ؛ احدهما : أن يحافظ الفرد على نفسه ، والأخرى : التكاثر
والمحافظة على النوع . وهاتان الغايتان يمكن اتخاذهما أساسا لتقسيم
مظاهر الحياة عند الحيوان وكذلك عند النبات ، وقد وجد بعض الباحثين
« تانسلي » (٢) أن الغايات الحيوية عند الانسان والحيوان الراقى
ثلاث وهي :

- ١ - المحافظة على الفرد .
- ٢ - المحافظة على النوع .
- ٣ - المحافظة على الجماعة .

ولو أن هذه الغاية الثالثة يمكن أن تدخل في نظر بعض الباحثين تحت
الغايتين الأوليين .

وكان من نتيجة هذين الاتجاهين - الاتجاه الأول الذي اعتمد على
دراسة السلوك الظاهري ، والاتجاه الثاني الذي اعتمد على الاهتمام

(١) وقد عدل ثورنديك رايه تعديلا لا يتسع له المقام هنا ولا يتسق مع
الاتجاه الذي نكتب عنه ، فريد أن يرجع بالفرانز الى الجينات أو حملة
الصفات الوراثية . وهذا مطلق بعيد في الوقت الحاضر . ولكن لرايه مغزى
هاما وهو توكيد فكرة الوراثة التي يتجه بعض المحدثين الى تجاهلها :

British Journal of Educational Psychology Vol. 12

(2) Tansley : The New Psychology.

بالغايات البيولوجية البعيدة — أن اختلطت في الاتجاه الأول التشكيلات «الغريزية» بالأفعال المنعكسة ، واختلطت كذلك بالحركات الجسمية الفطرية أيا كانت . وأصبح الباب فوق ذلك مفتوحا لأي عدد يمكن إضافته ونسبته الى « الغرائز » . وأما الاتجاه الثاني فإنه أدى الى تقسيم قليل الفائدة من الناحية العملية ، سواء في ذلك من الناحية التفسيرية أم التطبيقية .

ومن أمثلة هذا الاتجاه الثاني اتجاه «فرويد» و «آدلر» وأمثالهما . فيرى « فرويد » أن كل عمل في سلوك الانسان يمكن ارجاعه الى الغريزة الجنسية ، وتقوم فلسفة «فرويد» على أن الغاية الأساسية من مظاهر الحياة هي المحافظة على الجنس ، ولهذا يحدث التكاثر ، والتزاوج ، والمحافظة على الذات ، وما الى ذلك . لكن هب أننا نريد أن نقرر حب شخص لمادة رياضية كالجبر أو الهندسة ، فإننا نحتاج الى دوران كثير حتى نصل الى مثل هذا التفسير ، ويبدو التفسير اذ ذاك متعسفا⁽¹⁾ . ومن العسير كذلك ان نقرر بحث الجائع عن طعام أو دفاع المرء عن نفسه ووطنه بتفسيرات « فرويدية » مقبولة .

كذلك «آدلر» يرى أن «الغريزة» التي تفسر كل سلوك الانسان هي « السيطرة » . وتقوم فكرته على فلسفة التطور والترقى والانتقال من حالة الضعف الى القوة ، ومن الخضوع الى السيطرة ، ومن أسفل الى أعلى . هذا هو الأساس الفلسفي لفكرة «آدلر» ، فنظرته الى تطور الكون مبتدئا مما قبل انفصال الأرض عن الشمس ، ثم نظرته الى الكائنات الحية ، ثم الى تطور المدنية جعلته يرى فكرة الانتقال من البساطة الى التعقيد، ومن الخضوع الى السيطرة ، ومن نوع من الضعف الى نوع من القوة . ورأى في هذا كله قانونا عاما ، وفي تطبيقه على سلوك الانسان حالة خاصة . ولكن ما سبق أن قلناه عن « فرويد » ينطبق بعينه على «آدلر» بمعنى أننا نحتاج الى شيء من الدوران حتى نقرر الكثير من أنواع السلوك ، فمن العسير تفسير حنو الأم على صغارها واندفاع الجائع لسد رمقه بتفسيرات « ادلرية » دون أن تكون بعيدة المنال .

وأمثال هذه النظريات تفسر بعض الظواهر تفسيراً بسيطاً مباشراً مقبولاً ، ولكنها لا تفسر البعض الآخر الا بالاتجاه الى شيء من الدوران غير قليل⁽²⁾ .

(1) Freud. Ego and the Id.

(2) Adler. Individual Psychology ; Psychologies of 1930.

وهناك مدرسة ثالثة وهى المدرسة التى يتزعمها «مكدوجل»، وقد نظرت الى الغاية القريبة التى يؤدى اليها السلوك . ولنضرب مثالا يبين وجهة نظر الاتجاهات الثلاثة :

افرض أن هناك طفلا صغيرا جائعا وجد شيئا ما فى متناوله ، فأخذه ووضع فى فمه ليأكله ، فاذا أخذنا بالتقسيم المبنى على السلوك الظاهرى قلنا : لدينا هنا « غرائز » المسك ، والوضع فى الفم ، والأكل ، وغير ذلك ، واذا أخذنا بالتقسيم المبنى على الغايات البعيدة قلنا : ان الطفل انما يفعل هذا كله ليحافظ على نفسه واذا أخذنا بالرأى الثالث قلنا أن الطفل انما يفعل ذلك ليأكل ، فالغرض هنا هو الحصول على الطعام ، وأما المسك والوضع فى الفم وغير ذلك فلا تخرج عن كونها أساليب للحصول على الطعام ، وكذلك الرغبة فى المحافظة على النفس لا تدخل فى حساب الطفل ، وانما الذى يدخل فى حسابه أمر آخر ، وهو الرغبة فى الأكل .

ويقوم الرأى الثالث على فكرة الأغراض القريبة التى يرمى اليها الكائن الحى بسلوكه . لناخذ مثالا آخر : هب أن سيارة مسرعة قاجأتك فى الطريق ، فانك تقفز بسرعة عظيمة من طريقها . فاذا أخذنا بالأساس الأول قلنا بغريزة الهرب ، وغريزة الخوف ، وغريزة الجرى ، وغريزة رفع اليدين وغير ذلك . واذا أخذنا بالأساس الثانى قلنا : انك فعلت ذلك للمحافظة على نفسك ، أو للمحافظة على النوع البشرى عن طريق المحافظة على نفسك . واذا أخذنا بالأساس الثالث قلنا : انك كنت فى موقف يهدد حياتك بالخطر ، أدركته وشعرت بالخوف فيه ، وابتعدت عنه . ولذا نقول حسب الرأى الأخير : ان الغرض هو الخلاص من الموقف الخطر . والنجاح فى الوصول اليه يعيد الى الشخص حالة الاتزان .

وعلى هذا الأساس الثالث وضع « مكدوجل » قائمة الغرائز البشرية :

- | | |
|--------------------|-------------------|
| (١) غريزة الوالدية | — وانفعالها الحنو |
| (٢) « المقاتلة » | — « الغضب » |
| (٣) « الاستطلاع » | — « التعجب » |

| | | | |
|------|----------------------------|---|---------------------------|
| (٤) | غريزة الخلاص (الهرب) | — | وانفعالها الخوف |
| (٥) | » البحث عن الطعام | — | » الجوع |
| (٦) | » النفور | — | » الأشمزاز |
| (٧) | » الاستغاثة | — | » الشعور بالعجز والضعف |
| (٨) | الغريزة الجنسية | — | » الشهوة الجنسية |
| (٩) | غريزة الخنوع (الاستكانة) | — | » الشعور بالنقص أو الخنوع |
| (١٠) | » السيطرة (التسلط) | — | » الزهو |
| (١١) | » التملك | — | » حب التملك |
| (١٢) | » الحل والتركيب | — | » حب العمل والنشاط |
| (١٣) | الغريزة الاجتماعية | — | » الشعور بانوحدة |
| (١٤) | غريزة الضحك | — | » التسلية |

وقد أضاف « مكدوجل » الى هذه القائمة في أواخر أيامه أربع غرائز أخرى هي: البحث عن الراحة بأن يزيل المرء عن جسمه ما يعطيه شعورا غير مريح ، والنوم في حالة التعب ، والتنقل لرؤية المناظر غير المألوفة ، ومجموعة غرائز بسيطة ترتبط بالحاجات الجسمية العادية (١) .

ويرى بعض العلماء الذين يميلون الى تجميع الغرائز تحت أسماء قليلة أن الغرائز التي وضعها « مكدوجل » يمكن أن تقع تحت الأقسام الثلاثة الآتية :

(١) غرائز ذاتية أو فردية لحفظ الفرد ، ويدخل تحتها الهرب ، والبحث عن الطعام ، والسيطرة ، الى غير ذلك .

(٢) غرائز لحفظ النوع ، ويدخل تحتها الوالدية والجنسية .

(٣) غرائز اجتماعية لحفظ الجماعة ، ويدخل تحتها الغريزة الاجتماعية ، والمقاتلة . ويلاحظ أن المقاتلة — وكثيرا غيرها — تدخل تحت هذه الأنواع الثلاثة .

وهناك تقسيمات أخرى لا تعيننا هنا ، ويكفى أن نشير اليها اشارة بسيطة ، منها تقسيم « شنيدير Schneider » للغرائز الى موجبة كالجنسية والبحث عن الطعام ، وفيها يتقدم الكائن الحي الى الموقف المثير للغريزة ، وسالبة كالهرب ، وفيها يتعد الكائن الحي عن الموقف المثير للغريزة .

(١) McDougall : Energies of Men.

ورأى آخر يقسم الغرائز الى محافظة ؛ كالبحث عن الطعام والخلاص والتفرز . ومخاطرة ؛ كالمقاتلة والحل والتركيب .

ويلاحظ أن هذين التقسيمين الأخيرين عامان بدرجة تجعلهما قليلي القيمة من الناحية التفسيرية للسلوك مثلها في ذلك مثل التقسيمات التي قدمها كل من « تانسلى » و « فرويد » و « آدلر » .

هذه هي أهم الاتجاهات المعروفة التي انتهت الى وضع قوائم للغرائز ، وهناك اتجاه آخر رأى الاستغناء عن نظرية « الغرائز » استغناء تاما ، هذا الاتجاه أخذت به مدرستان تناقض كل منهما الأخرى مناقضة تامة ، واحدى هاتين المدرستين مدرسة « واطسون^(١) » الذي يرى — كما قلنا — أن سلوك الانسان يمكن تفسيره على أساس الفعل المنعكس كوحدة للسلوك ، وعلى أساس ما يبنى على الفعل المنعكس الطبعي من أفعال شرطية ؛ أما المدرسة الأخرى فهي التي يتزعمها « جون ديوى^(٢) » ، ومن رأيه أن الكائن الحي في أثناء اتصاله بالبيئة يقوم بنشاط وظيفته التكيف بين الكائن الحي والبيئة ، ويتكلم « ديوى » عن الدوافع ، والنزعات ، والرغبات ، ونحو ذلك ، ولكنه يؤكد أن أى محاولة لوضع تقسيمات للغرائز محاولة فاشلة وغير علمية ، إذ أنه يرى أن الخوف انواع عديدة ، فالخوف من سوء السمعة غير الخوف من الثعابين وهذا ينطبق في رأيه على كل ما يسمى عند غيره انفعالات و « غرائز » ، ولكن « مكدوجل^(٣) » يرى أن أساس هذه النظرية المحدودة لـ « جون ديوى » أن دراساته لم تقم على تعمق في دراسة الحيوان ، ولكن « ديوى » يبدو منطقيا في هذا مع فلسفته التي تنكر الحق المطلق .

ويتخذ الجشتالتيون موقفا شبيها بموقف « ديوى » من حيث انكار التقسيم الى غرائز^(٤) . وقد تأثر الأمريكيون باتجاهات « ديوى » و « واطسون » و « الجشتالتيين » ، فهم لا يريدون أن يرسموا الحياة النفسية باديء ذي بدء .

Watson. Behaviourism.

(2) J. Dewey. Human Nature and Conduct.

(3) McDougall. An Outline of Psychology.

(4) Wheeler. The Science of Psychology.

والمسألة كلها في نظرهم « كائن حي » « وبيئة » ، وللكائن الحي مجاله الداخلي النفسى والعصبى . وللبيئة مجالها الطبيعى والاجتماعى ، والكائن الحي يتكيف للوصول الى حالة اتزان فى وسط هذه المجالات المليئة بخطوط القوى المتعددة المختلفة . وبهذا نكون قد وصلنا الى حالة من العموم انعدمت فيها كل التفاصيل . حقيقة أن هذا الاتجاه تتوافر فيه الفكرة « الديناميكية » . ولكن الذى نلاحظه أن المحدثين فى علم النفس يريدون أن تأخذ بهذه الفكرة ، وبفكرة أن هناك قوى دافعة يرثها الانسان ؛ ولكنهم يتفقون موقفا سلبيا من تقسيم هذه القوى أو تعديدها . وكل تقدمهم لنظريات « الغرائز » انها تحدد القوى النفسية ؛ أو — كما يقولون — ترسم الحياة النفسية بادىء ذى بدء . والموقف السليم هو أن يثبتوا بالأساليب العلمية الايجابية عدم وجود ما أثبت وجوده العلماء الآخرون .

وموقف المدارس الأمريكية أن تكون هناك مرونة ، وألا يكون هناك تحديد . فاذا كان المقصود بعدم التحديد الوصول الى فكرة « الكلية » فإن ذكر التفاصيل لا ينقص الكلية إلا فنحن نعلم أن وضوح التفاصيل يخدم فى العادة الصفة الكلية فى الكل ؛ فاذا اتضحت أجزاء الوجه اتضح الوجه ككل والعكس أيضا صحيح .

لنأخذ مثلا لذلك جسم الانسان فهو يعمل ككل ، ولكن به أجزاء وأجهزة واضحة متميزا بعضها عن بعض ، ويعمل بعضها مع بعض ، وكذلك الحياة النفسية لها كليتها ولها تفاصيلها . يقول « ديوى » : هناك خوف من الأماكن العالية ، وهناك خوف من سوء السمعة ، وهناك خوف من الثعابين . ويقتضينا البحث العلمى فى الصفات الجوهرية المشتركة أن نقول : ان هناك خوفا ، وانه يظهر عند الانسان وعند الحيوان ، وانه صفة مشتركة فى الكائنات الحية ، فهى « طبيعية » أو « غريزية » فى الحياة النفسية . ونقصد هنا أنها اتجاه ، أو قوة ، أو مصدر من مصادر الطاقة .

وليس معنى هذه المناقشة أننا نريد ان ننسخ نظرية لنحل محلها أخرى ، ولكن معناه أن نبرز ما فى كل نظرية من مزايا وما أخذ ، وأن نعلق أحكامنا ، فقد نصل الى رأى آخر يختلف عن كل ما أشرنا اليه .

الغرائز ومحاولة تفسير السلوك :

نشأت الصعوبة في ادراك موضوع الغرائز من أنه ليس هناك أمور محسوسة يمكن تسميتها « الغرائز » بخلاف الفعل المنعكس ، فهناك مؤثر ثابت ورجع ثابت وممرات عصبية معروفة ، لذلك لم ينشأ خلاف على الفعل المنعكس ولا على أنواعه ، أما الغرائز — أو الاستعدادات الغريزية : أو القوى النفسية النظرية — فإنها مرنة قابلة للتعدل ، وقد استنتجها الباحثون بطرق غير مباشرة كمقارنة الانسان بالحيوان .

ونقول « استنتجوها » لأنه لا يمكن ملاحظتها ، ولذا فهي لا تخرج عن كونها فروضا افترضوها لتفسر بها السلوك عند الانسان أو الحيوان^(١) ويمكن أن تبقى هذه الفروض قائمة ما دامت ناجحة ، ففي حدود الحقائق الموجودة الآن تنجح « الغرائز » كما فصلها « فرويد » و « مكدوجل » و « آدلر » في تفسير السلوك عند الانسان والحيوان ، فاذا أخذنا ظاهرة كظاهرة التدخين مثلا يمكننا أن نقول : ان وراءها غرائز كـ « السيطرة » و « الاجتماعية » و « الاستطلاع » ، فالسيطرة تفسر سلوك الولد عندما يدخن ، ويشعر بذلك أنه كبر أو يريد أن يكبر . وان التدخين اسلوب يصل به الى مستوى الكبار ، والاجتماعية تفسر كيف أن التدخين أسلوب بسيط في السلوك اذا قام به أكثر من فرد واحد في مكان واحد فانه يربطهم بعضهم ببعض ، والاستطلاع يفسر كيف أن سيجارة يدخنها الفرد انما يدخنها للاستطلاع ، والتجريب ، لمعرفة طعم الدخان ، وكيف توقد السيجارة ، وكيف تنتهى .. الخ .

ويلاحظ أن « السيطرة » و « الاجتماعية » و « الاستطلاع » هنا كلها دوافع أو قوى ، فالدافع للسيطرة والدافع للاجتماعية والدافع للاستطلاع ، كل من هذه يدفع الانسان للقيام بهذا السلوك . وفي غالب الأحيان تكون هناك دوافع غير مباشرة للسلوك ، فحب

(1) Hocking says. Our ideas of our original nature must always be a result of abstraction. "Human Nature." p. 77.

العلم والانكباب على طلبه قد يكون بدافع مباشر وهو دافع الاستطلاع وقد يكون بدوافع أخرى كالمقاتلة للتغلب على مشكلة معينة ، أو البحث عن الطعام أو غير ذلك ، وهذه دوافع غير مباشرة إلا أن صلتها بالغرض ليست بعيدة . ولكن قد يكون طلب العلم بدافع تحسين الذات حتى تروق في نظر شخص آخر يميل إليه طالب العلم ، وفي هذه الحالة قد يكون الدافع الجنسي بطريق بعيد غير مباشر دافعا الى الانكباب على طلب العلم . ونرى من هذا أن الدوافع قد تكون ذات صلة مباشرة بالغرض الذي يرمى الفرد الى تحقيقه وقد تكون ذات صلة غير مباشرة مع تفاوت في درجة عدم مباشرتها .

ويمكننا أن نقول الآن : ان « الغرائز » هي دوافع أو قوى فطرية تدفع الكائن الحي للسلوك ، وان « الغرائز » - كدوافع فطرية - فرض علمي يساعدنا على تفسير السلوك ، ولنا الحق في استنباط نظرية « الغرائز » على هذا الأساس ، ولنا الحق في تعديلها أو احلال أخرى في مكانها تكون أقرب الى تفسير الحياة العقلية وتصويرها .

ومن هذا كله ينتقى الاعتراض القائل : ان فكرة الغرائز رجوع الى نظرية تقسيم العقل الى قوى عقلية مختلفة مستقلة ، فالغرائز بالصورة المعروفة لا تخرج عن كونها فروضا علمية تيسر لنا فهم السلوك ووصفه ، وتيسر لنا كذلك سبل توجيهه الوجهة الصالحة . ويقال : ان الخطر في ضيق التفسير والتصوير فيخشى أن يقوم أحد المرين بتصور أن تلميذا معيناً تحتاج غريزة المقاتلة عنده الى شيء من التقوية والتدريب . ولكن اذا فعلنا هذا فاننا نحيد عن طريق الصواب الذي يقيدنا بفكرة الكلية - الى جانب الغرضية والوظيفية - فبناء على فكرة الكلية نجد الدوافع الفطرية والمكتسبة يخدم بعضها بعضاً ، ويتعاون بعضها مع بعض بصورة متماسكة تجعل من العسير علينا في حياة الواقع أن ندرك أحدها منعزلاً عن الآخر .

ويحسن بنا أن ننبه هنسا الى أن أئمة المشتغلين بعلم النفس لاحظوا

صدوفا عن نظرية « الغرائز » ، فعمدوا مناقشة طويلة انتهوا منها الى أن نظرية « الغرائز » ، قائمة ، وأن ما يمكن أن يتناولها من التعديل يمسها في بعض تفاصيلها لا في جوهرها⁽¹⁾ . ولهذا فنحن لا نتمسك بتقسيمات «مكدوجل» تمسكا جامدا ، وإنما الذي نتمسك به أن هناك دوافع فطرية يمكن تسميتها بأى اسم مناسب

الصفات الأساسية للسلوك الغريزي :

- لهذا كله يحسن وضع أهم الصفات التي تسهل علينا معرفة « الغرائز » وتحديد قدر الامكان ، ويمكن ايراد هذه الصفات فيما يأتي :
- ١ — العموم : فالتشكيلة الغريزية عامة في أفراد الجنس بغير استثناء ، فسلوك الجمع نجده عاما في أفراد السنجابي في كل زمان وفي كل مكان .
 - ٢ — الثبوت : فالاستعداد الغريزي ثابت لا يمكن استئصاله ، ولو أنه يختلف في الدرجة اختلافات واسعة النطاق شأنه كشأن أى صفة فطرية .
 - ٣ — الاستمرار : ويقصد به استمرارها في أكثر من مرتبة واحدة من مراتب التطور ، والتشكيلات الغريزية للانسان نجدها في الحيوان الراقى كالثدييات .
 - ٤ — الفطرية : أى أن الفعل الغريزي فطري لا يعلم ، ولو أنه قابل لتعدل كبير .
 - ٥ — الظهور في مراحل من النمو تكاد تكون ثابتة . فهناك تشكيلات سلوكية فطرية تظهر عند ميلاد الانسان كـ « البحث عن الطعام » ، وهناك ما يظهر متأخرا قليلا كـ « الاجتماعية » و « السيطرة » و « المقاتلة » ، ومنها ما يظهر بعد ذلك كـ « الجمع » ، ومنها ما يظهر في النصف الأول من العقد الثاني كـ « الجنسية » . أما توجيه هذه النزعات وجهات معينة فلا شك أنه متوقف على البيئة .
 - ٦ — القيمة الحيوية : فللنشاط الغريزي وظيفة حيوية (بيولوجية) بالنسبة للكائن الحي .

(1) Is the Doctrine of Instincts Dead ? By Burt, Myers, Drever, Thorndike, Pear & Vernon.

British journal of Educational Psychology 1941, 1942, 1943.

٧ - التخصص في نوع الموقف الذي يثير النشاط الغريزي ، وفي نوع السلوك - أو التشكيلة السلوكية - الذي يؤدي الى تحقيق غايته .
٨ - وجود مظاهر الشعور الثلاثة في حالة قيام الكائن الحي بسلوكه الغريزي .

٩ - لكل دافع غريزي انفعال مصاحب (ويختلف بعض العلماء على هذه النقطة) .

١٠ - للتشكيلة السلوكية الغريزية في العادة أسس جسمية « فسيولوجية »

١١ - التشكيلة السلوكية الغريزية - كأى تشكيلة سلوكية أخرى - تتاج اتصال بين مجال بيئي خارجي ومجال حيوي داخلي .

المراجع

1. British Journal of Educational Psychology 1941, 1942, 1943
2. Dewey : Human Nature and Conduct.
3. Hocking : Human Nature p. 77.
4. McDougall : Energies of Men.
5. " " : Social Psychology.
6. " " : An Outline of Psychology.
7. Tansely : The New Psychology.
8. Watson : Behaviorism.
9. Wheeler : The Science of Psychology.
10. Darwin : The Expression of the Emotions in man

الفصل الثامن

الانفعال والسلوك

العلاقة بين السلوك الغريزي والانفعال :

عرفنا أن السلوك الغريزي يتميز باتصال نواح فسيولوجية ، كما يتميز بثلاث نواح هامة ؛ وهى : ناحية الإدراك ، وناحية الوجدان أو الانفعال ، وناحية النزوع . ونعلم أن الحالة الانفعالية — بحسب رأى مكدوجل — هى المميز الرئيسى الثابت فى السلوك الغريزي ، فبينما نجد الفعل الغريزي قابلا للتعدل فى ناحيته الاستشارية الإدراكية ، والنزوعية والتنفيذية نجد الحالة الوجدانية ثابتة . فنجد أن ما يثير تشكيلة غريزية معينة قد يصير غير قادر على استشارتها ، وبالعكس مالا يثيرها بطبيعته قد يكسب القدرة على استشارتها ؛ فقد يستثير فى الطفل غريزة الهرب رؤيته لمدرسه مع أن المدرس ليس مثيرا طبيعيا لها ؛ ولكنه صار كذلك بعد أن اقترن فى ذهن الطفل بمواقف الشدة ، أو بالظلم أو بالارهاب . كذلك النزوع الغريزي ، فانه يتعدل ، ويأخذ أشكالا مختلفة ، فطريقة الهرب من موقف مخيف تختلف من شخص الى آخر (١) ، ولكن مهما تعدلت الخواص الإدراكية والنزوعية فعنصر الخوف ثابت من حيث نوعه على الأقل . كذلك الوالدية بما فيها من انفعال الحنو فانها تكون نحو الأولاد ، أو نحو الضعفاء ، أو نحو الأطفال عامة ، أو نحو الأمة كلها ؛ ولكن الانفعال أو الوجدان الذى يصحبها فى كل حالة هو الحنو .

ولعل ثبوت الانفعال — برغم تغير الناحيتين الإدراكية والنزوعية — هو الذى سهل لـ « مكدوجل » الكشف عن أنواع التشكيلات الغريزية المختلفة .

(١) لعل فى هذا ما يكفى لتوكيد أهمية أثر البيئة .

ونلاحظ أن الانفعال المصاحب لبعض التشكيلات السلوكية الغريزية يكون واضحاً كما في حالة الهرب ، والوالدية ، والبحث عن الطعام ، وفي البعض الآخر يكون غامضاً كما في الحل والتركيب ، أو التملك . وحتى في السلوك الغريزي الواحد نلاحظ أن الانفعال أحياناً يكون واضحاً وأحياناً غير واضح . فمما لا شك فيه أن الزهو الذي يصحب النزوع الى السيطرة لا يكون بدرجة واحدة في جميع المواقف .

فكأن النزعات الغريزية في مجموعها تختلف بعضها عن بعض في درجة وضوح الانفعال المصاحب . كما أن النزعة الغريزية الواحدة تختلف عند الأشخاص المختلفين وعند الشخص الواحد في المواقف المختلفة من هذه الناحية ، وهي ناحية درجة وضوح الانفعال المصاحب .

ولعل من أسباب هذا الاختلاف أن بعض المواقف يتطلب اجراء سريعاً ، وبعضها لا يتطلبه أو يتطلب اجراء بطيئاً ؛ فالمقاتلة تختلف عن الاستطلاع في هذه الناحية ؛ اذ لا شك أن السلوك المصاحب للمقاتلة أسرع في العادة من السلوك المصاحب للاستطلاع . وفي المواقف المختلفة المؤدية للمقاتلة يكون الانفعال عنيفاً جداً ان كان الشخص يقدم على القتال ، ويكون فاتراً ان كان يتروى قبل الأخذ بثأره . كذلك في المواقف المؤدية للاستطلاع تجد نفسك في حاجة للتأمل والفحص ، فيكون انفعال الاستطلاع هادئاً . ولكن هب أنك كنت في « ترام » متحرك ولمحت في « ترام » آخر يسير في اتجاه مضاد شبا لشخص عزيز عليك لم تره من سنوات ، فانك تشعر اذ ذاك بانفعال واضح عنيف . ومن عوامل وضوح الانفعال المصاحب في هذه الحالة قصر الزمن ، وسرعة الاجراء المطلوب في هذا الموقف

وهناك مشكلات متعددة متعلقة بالصلة بين التشكيلة السلوكية الغريزية والانفعال لا يتسع هذا المجال لنقاشها ، ولكننا نشير اليها اشارة بسيطة . فيرى البعض مثلاً أن الانفعال لا يظهر مع السلوك الغريزي الا في حالة ظهور عائق يقف في وجه تحقيق الرغبة الغريزية ، ولكن يصح أن نسأل أنفسنا عما اذا كان الانفعال في هذه الحالة هو الانفعال المختص بالسلوك

الغريزي أم هو انفعال آخر ، لنضرب لذلك مثلا بالنزعة الجنسية ؛ فهذه اذا استثيرت يظهر انفعال الشهوة الجنسية واذا وقفت عوائق في سبيل تحقيق هذه النزعة فان الذي يحدث هو أن الشهوة الجنسية تقوى ؛ لظهور سرعة الرغبة في تحقيق الدافع الجنسي ، ولكن يظهر مع ذلك الدافع للمقاتلة والانتقام ، خصوصا اذا كان العائق مانعا حقيقيا ، وتفتح لنا هذه الناحية مشكلة أخرى ؛ هي : هل ما يظهر من انفعالات في مثل هذه المواقف يكون بسيطا أو مركبا من انفعالات عدة ؟ الى غير ذلك من المشكلات العديدة ، التي اختلف عليها العلماء الذين بحثوا في موضوع الغرائز .

ولكن الذي يهمنا أن نؤكد الآن هو أنه من الممكن أن ترى انفعالا يصاحب كل تشكيلة سلوكية غريزية، غير أن هذه الانفعالات بعضها واضح، وبعضها غير واضح . وهو واضح في التشكيلات التي يتضح فيها الاساس « النفسولوجي » أو الجسماني ؛ كالجنسية والبحث عن الطعام . وهذا التغير في درجة الوضوح هو الذي ألقى بعض الشك على نظرية «مكدوجل» في الغرائز . فيرى الكثيرون انه لا ضرورة لتكوين التلازم بين انفعال من نوع معين و « غريزة » معينة .

تحليل الانفعال :

تطلق كلمة انفعال على الحالات الوجدانية العنيفة ، وعلينا أن نتذكر أن الخوف مثلا له درجات مختلفة ، وأن حالات الخوف المتباينة لا يختلف بعضها عن بعض من حيث النوع (١) فالخوف أمام وحش كاسر على وشك أن يهجم عليك هو في نوعه كالخوف عندما تريد أن تقفز من مكان عال يبلغ ارتفاعه ثلاثة أو أربعة امتار ، ولكنه يختلف عنه في درجته فقط

ويجب أن نفرق دائما بين أمرين هما :

— الحالة الانفعالية ؛ كالشعور بالألم اذا لامست يدي النار ، والشعور بالخوف اذا أدركت نفسى في خطر .

(١) هذا على خلاف مع رأى « ديوى » الذي أثبتته في كتابه :

٢ - الاحساسات أو الادراكات المختلفة المسببة لهذا الشعور .

وهذا تفريق بين نواحي الشعور الثلاث ، فالشعور بالألم عند ملامسة النار مثلا شعور ذاتي (داخلي) وأما الاحساس فهو نتيجة مباشرة الأمر موضوعي ؛ وهذا الأمر الموضوعي هو النار (١) .

ويستعمل الناس عادة كلمة انفعال لتدل على معان مختلفة ، أحيانا تؤخذ متفرقة وأحيانا تؤخذ مجتمعة ، فيعتبرون أن الانفعال هو الشعور الخاص ؛ كالألم مجردا من أى عنصر آخر ، وأحيانا يعتبرونه المظهر الجسمي الذى يصحب الانفعال ، وأحيانا يأخذونهما معا . والذى أدخل المظهر الجسمي هو أن كل حالة انفعالية يصحبها تغيرات جسمية نشعر بعضها ولا نشعر بأغلبها .

وعلى العموم ينبغى أن نتذكر دائما أن كل حالة انفعالية يمكن تحليلها الى العناصر الثلاثة المعروفة ، فالنتقزز مثلا يحوى فى العادة ما يأتى :

(١) الشعور التفرزى الخاص .

(٢) احساسات خاصة صادرة من الجسم المسبب للتقزز .

(٣) حالة نزوعية ترمى الى التخلص من الجسم المسبب للتقزز .

ويوجد فوق ما تقدم تغيرات جسمية عضوية تصحب التقزز .

فلدينا اذن الانفعال ، ونواحي ادراكية تسبقه وتصحبه ، وتغيرات جسمية « لا ارادية » نشعر ببعضها ولا نشعر بأغلبها ، وحالة نزوعية .

ونعبر عادة عن الحالة النزوعية قائلين : دفعنى الغيظ الى الانتقام ، وهممت بالهرب من شدة الخوف الى غير ذلك .

التغيرات الجسمية والانفعال :

لندكر تجربة من التجارب العدة التى أجراها « كانون » (٢) حديثا لملاحظة ما يصحب الانفعالات من تغيرات جسمية ، فقد فحص بوساطة أشعة « روتجين » قطة بعد أن تناولت غذاءها ، فرأى ان المعدة تقوم

(١) راجع موضوع الشعور .

(2) Cannon : Bodily changes in Hunger, Fear and Pain.

Cannon : The Wisdom of the Body.

بحركتها المنتظمة بعملية الهضم . ثم أحضر أمامها كلبا غاضبا كبير الحجم ، فلاحظ أن عملية الهضم وقفت دفعة واحدة ، ولاحظ ان الأوعية الدموية انقبضت فى المعدة واتسعت فى أطراف الجسم ، وزاد ضغط الدم زيادة كبيرة فى هذه الأطراف ، وفوق ذلك لوحظت تغيرات مختلفة فى الإفرازات ؛ كزيادة العرق ونقص اللعاب وغير ذلك .

وقد دلت التجارب المختلفة على ان الحالات الانفعالية — التى منها الخوف والغضب — يزداد فيها (الادرنالين) وكمية السكر اللازم للاحتراق فى الدم . الى غير ذلك من التغيرات «الفسىولوجية» التى قد نحس بنتائج بعضها أحيانا ، ولا نحس بأغلبها .

نظرية « جيمس لانج » :

منذ أكثر من ستين عاما وضع كل من « جيمس » و « لانج » على انفراد النظرية المعروفة باسم نظرية « جيمس لانج » ولهذه النظرية صيغ متضاربة ناتجة عن عدم التمييز بين الحالة الانفعالية والتغيرات الجسمية .

تلخص هذه النظرية فى أن الانفعال هو مجموعة الاحساسات المختلفة المتسببة عن التغيرات العضوية ، وتختلف الانفعالات بعضها عن بعض باختلاف هذه الاحساسات العضوية . وذهب «جيمس» الى أبعد من هذا ، فقال : ان المظاهر الجسمية والعضوية ليست نتيجة للانفعال ، وانما هى السبب فى ظهوره ؛ فنحن لا نبكى — فى نظره — لأننا نشعر بالحزن ، ولا نضرب لأننا نشعر بالغضب ، ولا ترتعد فرائصنا لأننا نشعر بالخوف . وانما نشعر بالحزن لأننا نبكى ، ونغضب لأننا نضرب ، ونخاف لأن فرائصنا ترتعد . وقال أيضا : انه اذا أمكن تجريد الفرد من جميع التغيرات الجسمية والعضوية فى موقف ما فان الموقف يصبح موقفا ادراكيا خلوا من أى شعور أو انفعال .

وواضح — كما قلنا — ان «جيمس» لم يميز فى تعبيراته بين الحالة النزوعية — أى الاندفاع لعمل شئ — والتغيرات العضوية كجفاف

اللعاب ، وزيادة ضربات القلب ، وسرعة التنفس ، وزيادة « الادرنالين »
والسكر في الدم ، وافراز العرق .. الخ .

وزيادة على ذلك فقد أثبت « كانون » وغيره بالتجارب والملاحظات
العدة فساد هذه النظرية ، وأصبحوا يدعمون الفكرة القائلة بأن الأفعال
حالة شعورية صرفة تصحبها بعض التغيرات الفسيولوجية .

وفوق ما تقدم فالمنطق السليم يقول : ان الانسان يهرب من الخوف ،
ويقتل من الغيظ ، ولا يقول : ان الانسان يفتاظ من القتل ويخاف من
الهرب .

نظرية « مكدوجل » :

وقد وضع « مكدوجل » نظريته لأول مرة عام « ١٩٠٨ » في كتابه
علم النفس الاجتماعي . وهي شبيهة بنظرية كان « دارون » قد وضعها من
قبله . وتتلخص فكرته في أن كل التغيرات الجسمية والعضوية المصاحبة
للانفعال لها غرض أساسي بيولوجي ، وهو خدمة الفعل الغريزي . وكل
نوع من أنواع الحيوان تتكيف حركاته الجسمية بصورة خاصة بها في
أثناء الفعل الغريزي بحيث يتم هذا الفعل على أكمل وجه ممكن . وسى
« دارون » هذه الحركات بالأفعال المصاحبة المفيدة^(١)

“Serviceable Associated Actions.”

أخذ « مكدوجل » ومن تبعه هذه الفكرة ، وبنوا عليها في ضوء تجاربهم
وملاحظاتهم نظريتهم في الصلة بين الأفعال والتغيرات المصاحبة . فإذا ما أثير
انفعال الخوف فان الغرض الحيوي المطلوب يتحقق بسرعة الخلاص من
الموقف . وقد يتم هذا العمل عند الطيور بطيرانها ، وعند الغزلان بالجري ،
وعند الحيوانات المائية بالنفوس في الماء . ولكي يتم هذا نجد أن الأعضاء
الداخلية تتكيف لتساعد على تحقيق هذه الغاية ، فيسرع القلب في عمله
ليوزع الدم في شيء من السرعة على أجزاء الجسم ، وتسرع الرئتان في
عملهما لأخذ الهواء النقي وطرده غيره وبذلك تساعدان عملية الاحتراق

(1) Darwin: The Expression of the Emotions in man and animals.

الضرورية لاعطاء الجسم طاقته اللازمة ، ويتوزع الدم كذلك بحيث يترك أجزاء الجسم التي يمكن وقوف عملها في هذا الوقت ، فيترك المعدة والأمعاء وسطح الجلد، ويتوزع في المخ وفي العضلات الكبيرة التي تساعدنا على سرعة الهرب ، وتتسع حدقة العين حتى تستقبل أكبر قدر ممكن من الضوء لتستعين به على ادراك الأشياء وتمييز المواقف .

وهناك أيضا التغيرات الكيميائية التي أثبت وجودها « كانون » وغيره ، والتي ذكرنا بعضها سابقا ، وهي زيادة افراز « الادرنالين » والسكر ، فـ « الادرنالين » يساعد على شد العضلات واستمرار العمل ، والسكر يعطى الجسم حرارة فتقوم كل العضلات بعملها خير قيام . وللسكر و « الادرنالين » وظائف أخرى في هذه المواقف . ومجموع التغيرات الحادثة ونتائجها يكون عادة المظهر الخارجى للانفعال ، ففى انفعال الخوف مثلا تتلخص أهم هذه المظاهر فيما يأتى :

اتساع العين ، واتساع الحدقة ، وثبوت العين ، وجفاف الريق ، ووقوف الهضم ، وصفرة اللون واسراع النبض ، واسراع التنفس فى شىء من العمق ، وخفة الحركة ، وغير ذلك .

وهذه التغيرات توجد عادة فى كل نشاط غريزى ، الا أن بعض المواقف تتطلب سرعة فى العمل والتنفيذ ونشاطا جسيما زائدا . ولهذا نجد أن التغيرات الجسمية تكون عنيفة فى غريزتى الهرب والمقاتلة . وأما الغرائز التي لا تتطلب لتحقيق أغراضها نشاطا جسيما كبيرا ولا سرعة فى التنفيذ فان انفعالاتها تكون أقل تعقيدا وأقل عنفا ، بل أقل وضوحا من الانفعالات المصاحبة للهرب والمقاتلة ، فحب الاستطلاع مثلا يتطلب الهدوء . وعدم التسرع ، ولا يتطلب قوة عضلية لتحقيق رغباته لذا كانت مظاهره الخارجية بسيطة هادئة لا وضوح للانفعال فيها ، وكذلك نجد حب التملك وانزعة الاجتماعية .

على أن البحوث ما زالت تجرى فى هذا الموضوع ، إذ أنه لوحظ أن بعض الحالات الانفعالية يصحبها تغيرات مخالفة لما يصحب بعض الحالات

الانفعالية الأخرى، وقد فسر هذا الاختلاف بأن الانسان يميل الى الاستمرار في بعضها ؛ كما في انفعالات السرور ؛ ويميل الى الكف عن بعضها الآخر ، كما في انفعالات التألم والحزن . ففي الأول تجد زيادة في النبض وانتشارا للدم على السطح وعلى أجزاء المخ مما يجعل المجموع العصبى المركزى أكثر قابلية للتأثر بالعوامل الجالبة للسرور ، وهذا يفسر الانتشاء والتيقظ المصاحبين لمواقف المؤدية الى السرور . وأما في الثانية فتجد هبوطا في النبض وفي كمية الدم الذاهبة للأطراف والمخ مما يجعل المجموع العصبى المركزى أقل قابلية للتأثر بالعوامل غير الجالبة للسرور ، وهذا يفسر الانقباض والخمول والهبوط وقلة اليقظة في المواقف الجالبة للتحسر والحزن وما الى ذلك (١) .

ويتمشى هذا التفسير مع النظرية التى نحن بصدد ها وهى أن التغيرات تحدث عادة لصالح الكائن الحى .

وقد اعترض على هذه النظرية بأن التغير الحاد لا يكون دائما لصالح الكائن الحى ؛ ففي حالة الخوف قد يفقد الشخص قدرته على الحركة فيشبت في مكانه . ولكن يرد على هذا بأن التغيرات تتجه في اتجاه صالح الكائن الحى ، وهى تعمل لصالحه على قدر الامكان . ومع ذلك فالثبوت التام الذى يحدث أحيانا في الظروف الطبيعية من شأنه أن يفقد العدو مقدرته على تمييز الحركة وفي هذا نوع من الحماية . ولهذا كان التماوت والسكون التام وما يشبه ذلك يحدث في الاتجاه الذى قد يفيد في حماية صاحبه .

الانفعالات الأولية والثانوية والمشتقة :

سبق أن ذكرنا ثبتنا بالغرائز المختلفة في نظر « مكدوجل » ، وذكرنا مع كل منها انفعالها الخاص بها . بحسب رأيه . فالانفعالات التى قلنا بأنها العناصر الأساسية في الغرائز يسميها « مكدوجل » بـ « الانفعالات الأولية »

(١) هذا بالطبع مع مراعاة أن هناك فروقا بين الافراد تجعلنا نضعهم في ملوائف ، فهناك الانبساطيون ، وهم أكثر قابلية للتأثر بالعوامل الجالبة للسرور ، والانقباضيون وهم على عكس ذلك .

فالانفعالات الأولية اذن هي : الخوف والغضب والاشمئزاز والحنو... الخ ، ولكل من هذه الانفعالات مظاهر جسمية وخارجية خاصة بها . فكلنا يعرف من حركات شخص ما والتغير الحادث في ملامح وجهه خوفه أو غضبه أو غير ذلك . وتميز هذه المظاهر الخارجية للانفعالات المختلفة دعا الفنانين الى اخراجها في صورهم وتمثيلهم وتمثيلهم . وادراك هذه المظاهر الخارجية يمكننا أيضا من معرفة الدوافع النفسية للأشخاص الذين تتعامل معهم . وسنعلم أيضا أن ادراك المظاهر الخارجية للاتعمال يستثير عادة عند المدرس نفس الحالة الانفعالية ، وأن انفعال الغضب مثلا يثار في شخص ما بطريقتين ؛ احدهما : الوقوف في سبيل تحقيق بعض رغباته أو أغراضه الغريزية — كما يسميها « مكدوجل » — وثانيتهما : ادراك المظاهر الخارجية لانفعال الغضب⁽¹⁾ .

وتدلنا الانفعالات عادة على الحالات النفسية عندنا وعند غيرنا ، وعلى ما يجب علينا عمله ، فانفعال الغضب مثلا يدلني على أنني غاضب . واذا شعرت به فقد أجد أنه من المستحسن أن اضبط سلوكي خوفا من الشطط . وكذلك ادراك المظاهر الخارجية للحالات الانفعالية عند شخص ما تجعلنا نستعد لمقابلة سلوكه بالشكل المناسب ، فاذا لاحظت على شخص ما علامات الغضب فقد اتجنبه ، أو استعد لمقاومته ، أو أبدأ بمهاجمته ، او غير ذلك . فالانفعالات اذن — وخصوصا الأولية منها — لها وظيفة ادراكية . فهي توقظنا — كما قلنا — على الحالات النفسية عندنا وعند غيرنا ، وتمكننا من ضبط سلوكنا وتوجيهه .

ولكننا نعلم أن بعض المواقف يستثير نزعتين مختلفتين في وقت واحد ، وكثيرا ما يحدث أن تتذبذب بين حالتى الخوف وحب الاستطلاع أمام شىء غريب ، واليك مثلا لحادثة وقعت لى بالفعل : استيقظت مرة على ملمس شىء غريب عند قدمي في أثناء الليل ، وكان الظلام حالكا ، فأحسست اذ ذلك بخوف شديد ، ولكنى أبعدت رجلى وقمت ببطء أتلمس

(1) سندرس هذا بالتفصيل في فصل المشاركة الوجدانية .

هذا الشيء الذى اتضح فيما بعد أنه ذيل قطة كانت نائمة فى الفراش الذى أقام فيه . ومثار الخوف أننى ظننت الذيل ثعبانا عند الاحساس به ، وعند تمام المعرفة زال الانفعالان معا . وحل محلها انفعال السرور والتسلية والضحك . فالحالة الانفعالية هنا كانت مزيجا من انفعالين أوليين . وقد يحدث أن يكون الانفعالان اللذان يثاران فى وقت واحد متضادين لدرجة تجعل امتزاجهما مستحيلا ، كالاتفعال الذى يصحب البحث عن الطعام وانفعال التفرز ، وتكون نتيجة هذا التنافر أن يتغلب أحدهما على الآخر فيظهر ، وأما الآخر فإنه يختفى — ولو ظاهريا — . فإذا كان لدى المرء احساس بالقيء (تفرز ظاهر) فإنه لا يمكنه فى الوقت نفسه أن يشعر برغبة فى تناول الطعام .

والذى يهمنى الآن هو الحالة التى فيها مزيج من انفعالين أوليين أو أكثر، ويسمى الانفعال الناتج عندئذ بالانفعال المزجى أو الانفعال الثانوى أو الانفعال المركب .

ومن أمثلة الانفعالات الثانوية : الإعجاب الذى هو مزيج من التعجب المصاحب للاستطلاع والذلة المصاحبة للخنوع . ونلاحظ أن قادة الفكر أو الزعماء يثيرون اعجابنا عادة لأن بهم ناحية غامضة تستثير التعجب والاستطلاع وناحية أخرى عظيمة تستثير فىنا الخضوع والخنوع . وهكذا يمكننا أن نحلل اعجابنا بالمخترعات والمخترعين وأعظم الرجال وما إلى ذلك . ولكن إذا اختلط الخوف بهذا الإعجاب ظهر لنا انفعال آخر وهو الرهبة . وإذا اختلطت الرهبة بالعرفان بالجميل ظهر انفعال التقديس . ويسمى هذا الانفعال بالانفعال الدينى الذى يدخل تحته انفعالات التعجب والخنوع والخوف والعرفان بالجميل . وهذا الأخير بدوره انفعال ثانوى مركب .

ومن هذا قد ندرك السبب فى عبادة القدماء للطبيعة وفلواهرها ، فعبادة المصريين للنيل ربما كان سببها اعجابهم بفيضانه، وانتظامه ، وما يظهر فيه من أبدية واستمرار ، وشعورهم بقوته الهائلة ، وقدرته على البطش ، ومع ذلك كله فإنهم كانوا يشعرون بفضله فى قدرته على افادتهم واستمرار حياتهم .

ولكن بمجرد أن أدرك الناس اسباب الفيضان ومصادره (لا نقصد أنهم كشفوا منابع النيل) زال انفعال التعجب وزالت معه العبادة .
وقد يمتزج التقزز بالغضب فينشأ الاحتقار .

أما انفعال الغيرة فهو مزيج من الغضب ، وحب التملك ، والشعور بالنقص . ونظرا لتعدد انفعالات الغيرة ولأنه يكتب عادة بسبب ما به من شعور بالنقص نجد صعوبة في كشفه . فصاحب الغيرة لا يعترف أمام غيره ولا أمام نفسه بأنه يشعر بها . ومظاهر الغيرة تختلف من غضب الى اتلاف الى مخاصمة الى شعور بالدلة الى انقباض الى غير ذلك من أنماط السلوك المتعددة .

هناك كذلك انفعال العتب فاذا اكتشفت أن كتابا ثميناً من كتبك قد أصابه التلف فقد تغضب لذلك . ولكن اذا علمت أن الذي اتلفه طفلك الصغير تجد الغضب يتحول الى انفعال آخر — هو مزيج من الغضب والحنو — يمكن تسميته العتب .

ويلاحظ أن بعض هذه الانفعالات الثانوية يظهر في دائرة عاطفة معينة ، فالعتب لا يظهر الا في حالة توجد معها عاطفة « الحب » أما الاحتقار فيوجد مع عاطفة الكراهية . وسنفرّد فصلاً خاصاً نوضح فيه معنى العاطفة، والفرق بينها وبين الانفعال .

وعلينا أن نذكر أن الانفعال الثانوي ليس مجموعاً حسابياً لانفعالين أو أكثر ، وانما هو حالة مركبة لها خصائصها ، فالاحتقار انفعال مركب يتميز عن غيره ، ويظهر دفعة واحدة في الموقف المثير له ، لا تجد أن الغضب يظهر ، ثم يظهر التقزز ، ثم يجمعان أحدهما على الآخر ليتكون الانفعال الجديد . وانما يتكون الانفعال في موقف مركب لو حلل الى عناصره لأدى كل عنصر الى انفعاله الأولى فالعلاقة بين الانفعال المركب والانفعالات الأولى كالعلاقة بين المركب الكيماوي وعناصره الأولية .

وهذا تطبيق آخر لمبدأ الكلية ، وهو أحد المبادئ الثلاثة التي شرحناها في الباب الأول .

وهناك — بحسب رأي « مكدوجل » — نوع ثالث من الانفعالات يسميه الانفعال المشتق وهو لا يكون في العادة مرتبطاً بأي فعل غريزي ؛

ولكنه يظهر في أثناء السلوك الغريزي أيا كان . فاذا أخذنا الخوف نجد أنه انفعال لغريزة الهرب ؛ ولكن اذا استثيرت الغريزة فان الانسان في أثناء شعوره بالخوف قد يشعر باليأس من الهرب أو الأمل في الهرب . ويسمى كل من اليأس والأمل انفعالا مشنقا . ونفس هذا يحدث مع بقية الغرائز . ومن الانفعالات المشتقة السرور والألم واليأس وما الى ذلك من الانفعالات التي لا ترتبط دائما بفعل غريزي خاص .

أساس آخر لتقسيم الانفعالات :

وهناك تقسيم آخر يشيع بين علماء النفس الألمان⁽¹⁾ ويقوم هذا التقسيم على نوع الناحية الادراكية التي يمكن أن تكون أساسا للناحية الانفعالية . فالانفعالات الأولية أو الدنيا هي التي ترتبط في نظرهم « باحساسات » بسيطة . فالألم الناشئ من شكة الدبوس أو اللذة الناشئة من تناول شراب حلو يسمى انفعالا أوليا . وأما اذا كان الانفعال ناشئا من فهم معنى حقيقة معينة فانه يعتبر من الانفعالات العليا . فاذا سمعت مدحا يخصصك فالشعور بالزهو لا ينشأ من الاستماع ؛ وانما ينشأ من فهم معنى ما يسمع . وبعبارة أخرى : تكون الانفعالات الأولية حسية الأصل . وأما الانفعالات العليا فانها تكون معنوية الأصل ولا يعنينا التقسيم على هذا الأساس الا من حيث كونه عرضا لوجية نظر مخالفة لوجية النظر المتبعة في هذا الكتاب . وهناك تقسيمات أخرى تقوم على أسس أخرى ، وليس هناك ما يدعو للتعرض لها الآن .

طرق دراسة الانفعالات :

يمكن تلخيص الطرق المتبعة في هذا في قسمين⁽²⁾ : الطرق التعبيرية « Methods of Expression » أو الطرق التأثرية « Mehtods of Impression » . وتقوم

(1) Lindsworsky : Experimental Psychology p. 179

(2) Drever and Collins : Experimental Psychology.

الطرق التعبيرية على قياس التغيرات الحادثة في سرعة النبض ، أو في ضغط الدم ، أو في طريقة التنفس ، أو في تغيير قدرة الجسم على مقاومة التيارات الكهربائية الضعيفة أو غير ذلك . ولكل من هذه أجهزة خاصة غاية في الدقة تقوم بقياس هذه التغيرات وتسجيلها . ومن هذه : « Sphygmograph » للنهض ، و « Plythysmograph » لامتلاء الأوعية الدموية ، و « Pneumograph » للتنفس ، و « Cardiograph » للقلب ، و « Automatograph » لحركات اليد غير الإرادية ، و « Psychogalvanometer » لتغير مقاومة الجسم للتيارات الكهربائية .

ويعتمد في الطرق التعبيرية على معرفة التغيرات الجسمية والفسولوجية والسلوكيون يعتمدون عليها دون غيرها ، ويكتفون بالربط بينها وبين المؤثرات .

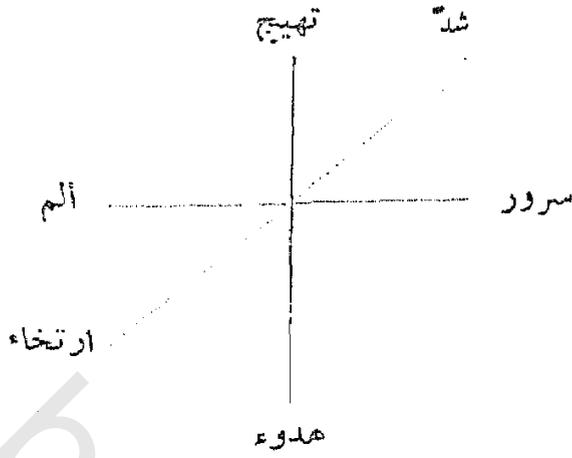
أما الطرق التأثيرية فتقوم على تأثر الشخص وشعوره وتقديره . فقد تعرض على الشخص صورتين ليختار احدهما ، وقد تعرض عليه عددا من الزجاجات بها مواد ذات روائح مختلفة وعليه أن يختار أحسنها . ويعطى الشخص في العادة تأملاته الباطنية في هذه الحالة . ويحسن الجمع عادة بين الطرق التعبيرية والتأثيرية مع العناية باجراء التأملات الباطنية .

ويعتمد على الطريقة التأثيرية في معرفة الميول الشائعة بين الناس . فإذا عرضنا ثلاث قصص (ا ، ب ، ج) على تلميذ ليختار أحسنها فيحسن أن أجعله يوازن بين (ا ، ب) ثم يوازن بين (ب ، ج) . وأرتب (ا ، ب ، ج) ترتيبا تنازليا بحسب تأثر هذا التلميذ وأكرر هذا على عدد كبير من التلاميذ حتى أخرج بفكرة عن اتجاه تذوق القصة في حدود هذه التجربة .

ويمكن اتباع هذه الطرق في موضوعات أكثر عددا وأكبر تعقيدا ، ويمكن الخروج منها بأنماط للتأثر الانفعالي والتذوق وما الى ذلك .

صفات الانفعال :

قام كثير من علماء النفس بمحاولة تحديد النواحي المختلفة التي يوصف بها الانفعال . فاكتفى بعضهم بأن يصف الانفعال على مقياس السرور والألم وما بينهما من درجات و لكن « فنت Wundt » رأى أن هناك ثلاث نواحي:



(١) السرور والألم .

(٢) التهيج والهدوء .

(٣) الشد والارتخاء .

فحالة غضب قد تكون على درجة عالية من الايلام والهدوء والشد وحالة سرور مصحوب بضحك قد تكون على درجة عالية من السرور والتهيج والارتخاء .

ويلاحظ أنه اذا اعتبرنا السرور موجبا والألم سالبا فان هناك درجات عديدة تقع بينهما ، ولذا سمي « فت » فكرته بنظرية الأبعاد الثلاثة للاتفعال .

وبالرغم مما وجه اليها من انتقادات نظرية عدة فانها تفيد كثيرا من الناحية العملية .

الانفعال والمزاج :

من الأمور المعروفة أن التأثير الاتفعالي يتوقف على أمرين ؛ أحدهما : الموقف ، والثاني : الشخص وحالته الجسمية والعقلية . فالاستعداد للتأثر الاتفعالي يختلف من فرد الى آخر ، ويختلف في الفرد الواحد من وقت الى آخر ، وذلك بحسب عوامل بعضها فطري دائم وبعضها مؤقت .

فالانسان في حالة التعب ، أو الراحة ، أو المرض ، أو الصحة ، أو المرح ، أو الاكتئاب تجده أكثر استعدادا للتأثر بطريقة معينة عنه بطريقة أخرى . ويتوقف الاستعداد للتأثر الاتفعالي الى حد كبير على الحالة الغذائية

والعصبية للشخص ، وعلى ما يجرى في الجسم من عمليات الهدم والبناء ، والعمليات الكيميائية المختلفة ، وهذا الجزء من الاستعداد يسمى مزاجا

«Temperament»

ولكننا عندما نصف الفرد نقول : انه سريع الاتفعال أو بطيء الاتفعال، مثابر أو غير مثابر . أى أننا نصف مظاهر حياته الاتفعالية وطريق سيرها وهذا ما نسميه بالطبع « Temper » .

كذلك يحدث أن يبدأ الواحد يومه منقبضا ، ويستمر انقباضه هذامدة طويلة . كذلك نراه مرحا ، أو غاضبا ، أو مشمئزا ، ثم نراه يستمر هكذا مدة طويلة حتى بعد زوال الأسباب الظاهرية . واستمرار حالة وجدانية بعد زوال أسبابها الظاهرة نسميه حالة مزاجية

ولكننا اذا أردنا أن نصف الشخص وصفا دقيقا تحسن ملاحظته لمدة طويلة في ظروف مختلفة وعند قيامه بألوان متعددة من النشاط ، ويحسن بالاضافة الى درس مزاجه وطبعه وحالاته المزاجية أن نسترشد بثبت الغرائز والانفعالات فنقدره في حالة الاستعداد للغضب ونعطيه درجة قد تتراوح من « + ٢ الى - ٢ » ، ويكون معنى « + ٢ » أنه غضوب جدا ، ومعنى « + ١ » أنه غضوب ، ومعنى صفر اعتيادي ، ومعنى « - ١ » أنه مسالم ، ومعنى « - ٢ » أنه مسالم جدا وهكذا في بقية الصفات .

وهذه طريقة مبدئية لدراسة الأشخاص من الناحية الانفعالية ، وعلى ما بها من بساطة فقد ثبتت فائدتها ، خصوصا في حالة تعدد الملاحظين ، وتنوع الظروف .

تطبيقات اجتماعية وتربوية :

نسلم أول الأمر أن الانفعالات من أهم دوافع الانسان للعمل ، ونستنتج من هذا أهميتها للفرد والمجتمع ، فاذا أردنا من الناس أن يقوموا بعمل ما فان أسهل الطرق لذلك هي استثارة انفعالاتهم أو ما يسمونه عواطفهم ومشاعرهم .

وأسهل الطرق لاستثارة الانفعالات هي استشارتها عند الجماعة ، أى أن استثارة الجماعة أسهل من استثارة الفرد ، وهذا راجع الى تضخم التأثير يفعل المشاركة الوجدانية . ولذا تهتم الحكومات عادة بمنع التجمهر والاجتماعات في أثناء الأزمات السياسية ، ويهتم الذين يريدون تهيج الرأى العام بعقد الاجتماعات ، ثم استثارة الشعور فيهم ، وهذه طريقة قديمة وباقية . فهي التي اتبعها « شيشرون » قديما ، وقادة كل من الثورتين الفرنسية والمصرية وغيرهم حديثا .

وقد درس الناس كثيرا من العوامل التي تثير الانفعالات ، فمن هذه الموسيقى ، والشعر ، والفن التصويرى ، والتمثلى ، وغير ذلك . فلا يجوز اذن أن نهمل أثر الفنون المختلفة فى تنشيط الأمم والجماعات ودفعها نحو العمل . وقد كان للفنون بمختلف أنواعها أكبر الأثر فى انهاض الأمم فى جميع العصور التاريخية المعروفة .

ولعلنا نرى مما تقدم امكان استثارة التلاميذ نحو الأعمال الخيرية والوطنية على أن تكون الاستثارة متبوعة دائما بالتنفيذ ، وعلى هذا الأساس تبنى التربية الخلقية . ونرى أيضا أهمية التربية الفنية كتذوق الجمال والأدب والشعر والموسيقى والتمثيل ، ولكن التذوق لا يكفينا ، فيجب أن ندرّب التلاميذ على الطرق التعبيرية المختلفة ، سواء كان التعبير فى صورة إنتاج أدبى أو تصويرى أو تمثلى أو غير ذلك ، ونلاحظ عادة فى التلاميذ حيوية وتحمسا عند اهتمامنا بالناحية الوجدانية أكثر مما نلاحظ فيهم عند اهتمامنا بالناحية الفكرية النظرية المجردة .

وللانفعالات أثر فى العمليات العقلية ، فالحالات التى يصحبها انفعال شديد يختل فيها التفكير المنتظم ، ولهذا كان من العبث مناقشة الغاضب مناقشة منطقية ، وهذا لأن التفكير يرمى الى ربط عدة أفكار بعضها ببعض ، بينما الانفعال يثبت فى ذهن المرء فكرة واحدة ، فالغاضب أو الحزين لا يسيطر على عقله الا فكرة واحدة ، وهى التى أثارت غضبه أو حزنه . وأما فى حالات الانفعال المعتدلة فنجد أن تفكير المرء يصطبغ عادة بصبغة وجدانية خاصة ، وينتبه المرء لنوع من الأفكار دون الأفكار الأخرى ؛ فاذا شعر المرء بالانقباض فانه يرى أنه سيء الحظ ، ولا يرى فيما يرى أو يفكر الا عناصر الانقباض ، ولا يقدر النكتة أو المزاح ، أما عند شعوره بالمرح ، فانه يرى السرور فى كل شىء ، ويضحك للنكتة ويقدرها . ولنفس السبب نجد المغرمين يرون الغرام فى الزهر ، والطير ، والماء ، والهواء ، والموسيقى ، والشعر ، بل فى كل ما يرون ويسمعون ويحسون . ونرى بغاية الوضوح انسجام الأفكار ، واصطبغها بصبغة وجدانية واحدة فى الشعر والموسيقى .

وللانفعالات آثار متناقضة في التذكر ؛ فبعض الحوادث المصحوبة بانفعالات شديدة تترك آثارا ثابتة يصبح من الصعب نسيانها ، وفي الوقت نفسه نعلم أن بعض الحوادث المصحوبة بانفعالات شديدة الايلام نساها نسيانا تاما . هذه حالات شاذة ، ولكن الحالات الانفعالية المؤلمة تقلل الاستعداد للتذكر ؛ فالطفل الذي يتعلم تحت تأثير العصا يكون تقدمه أبطأ من غيره الذي يتعلم بالطرق الحديثة التي تعتمد على الحرية ، ولا تعتمد على الارهاب والعقاب والتخويف .

ولبيان أثر انفعال الخوف في التلاميذ أجرى أحد العلماء تجربة قرأ فيها بعض الكلمات على تلاميذه ، ثم طلب منهم استرجاعها ، وأوجد متوسط ما تذكره تلاميذ الفصل ، ثم قرأ عليهم مجموعة أخرى مساوية للسابقة تماما في العدد والصعوبة ، ولما انتهى من قراءتها أطلق « مسدسا » في الفضاء دون أن يتوقع ذلك أحد ، ثم طلب من التلاميذ استرجاع ما قرأه عليهم ، فوجد أن أكثرهم قد نسوا جميع الكلمات ، وان عددا قليلا منهم تذكر كلمة أو كلمتين .

واستنتج من ذلك أن الخوف يسبب النسيان .

وترمى التربية الحديثة أيضا الى اشباع النزعات الغريزية المختلفة ، أى أنها ترمى الى استثارة هذه الانفعالات ، وجعلها الدوافع الأساسية للعمل ؛ فالطفل الذي يعمل بشغف لاشباع حب الاستطلاع أو الحل والتركيب يتعلم أكثر وأسرع من الذي يتعلم ما يريد المدرس أن يعلمه اياه . وهذا هو الأساس الذي تسيير عليه مدارس النشاط الحديثة التي تبنى خططها على نشاط التلميذ أكثر من نشاط المدرس ، ويستلزم نشاط التلميذ ليكون منتجا استثارة الانفعالات واشباع الميول بالصورة التي سبق أن بينها .

المراجع

- Cannon : Bodily Changes in Hunger, Fear and Pain.
Cannon : The Wisdom of the Body.
Darwin : The Expression of Emotions in Man and Animals.
Dewey : Human Nature and Conduct.
Drever & Collins : Experimental Psychology.
Lindsorsky : Experimental Psychology.

obeykandi.com

الفصل السابع

الاستهواء

تحدثنا في الفصلين السادس والسابع عن التشكيلات السلوكية الغريزية أو الفطرية ، وتحدثنا في الفصل الثامن عما يصاحبها من انفعال ، وتبين لنا في كل هذا أنه من الممكن أن نفترض أن للانسان استعدادات فطرية تهيئه في بعض المواقف لنشاط له وظائف بيولوجية هامة بالنسبة للكائن الحي .

وهناك مجموعة من الاستعدادات - سواء اعتبرناها فطرية أو غير فطرية - تلعب دورا هاما في الحياة الجمعية . وهذه الاستعدادات هي القابلية للايحاء أو الاستهواء ، والقابلية للمشاركة الوجدانية ، والقابلية للتقليد ، والميل الى اللعب والتكرار .

والنزعات الثلاث الأولى ترتبط بنواحي الشعور الثلاث : الادراك والوجدان والنزوع . فانتقال الأفكار (الادراكات) من شخص الى آخر تحت شروط معينة يدخل في باب الاستهواء . وانتقال الوجدانات والالفعالات من فرد الى آخر في ظروف معينة يدخل في باب المشاركة الوجدانية ، أما انتقال ألوان السلوك أو المظاهر التنفيذية فإنه يدخل في باب التقليد . وبذلك نرى الكائن الحي معدا بما يساعده على التأثر بما حوله من مختلف المظاهر العقلية الشعورية . وبذلك أيضا نجد الانسان بنوع خاص معدا اعدادا طبيعيا بما يعاونه على الارتباط الفكري والوجداني والسلوكي بمن حوله من بني جنسه . فيكون لدى المجتمع الأدوات الطبيعية التي تهييء له تماسك أفراده بعضهم ببعض .

ويتطلب انتقال الفكرة أو الوجدان أو السلوك وجود طرفين على الأقل .

ويسمى الطرف الذى تنتقل منه الحالة النفسية « المؤثر » . أما الطرف الآخر الذى تنتقل اليه هذه الحالة فانه يدعى « المتأثر » .

ويتبين من كل هذا السر فى أن بعض علماء النفس كانوا يميلون الى تسمية هذه النزعات الثلاث بالفرائز الاجتماعية . أما النزعة الرابعة وهى اللعب فيمكن أن تكون اجتماعية ، ويمكن أن تكون فردية .

وسنعالج هذه الظواهر النفسية المختلفة بغض النظر عما يراه بعض علماء النفس من كونها فطرية ، وما يراه البعض الآخر من كونها غير فطرية ، ولو أن هناك أدلة لاثبات فطريتها ، ونحن فى صف هذه الأدلة .

القابلية للاستهواء :

من الأمور المشاهدة أن يتحدث المرء الى صديق عن برودة الجو فيحس السامع على أثر هذا الحديث ببرودة فعلية ، ويحدث مثل هذا فى كل يوم عندما يتأثر الناس بعضهم بأفكار بعض . فانك لا تكاد تقرأ الخبر فى صحيفة سيارة حتى تصدقه وتحدث عنه باقتناع . كذلك يذهب الناس لسماع خطيب أو محاضر له صيته فى محيط تخصصه ، فيخرجون وقد اعتنقوا أفكارا جديدة دون أن يسمحوا لأنفسهم بالتشكك فيها أو مراجعتها أو استيفاء الأدلة المؤدية الى الاقتناع بها . وعلى هذه الظاهرة يعتمد الساسة فى توجيه الجماهير وجهات معينة . فهى ضرورية لدفع الجيوش للحرب ، وضرورية للدعاية ولاثارة الرعب بما يسمى حرب الأعصاب .

واستعداد الشخص لتقبل فكرة مع عدم وجود الأسباب المنطقية الكافية لتقبلها هو ما نسميه « القابلية للاستهواء » . والذى نعلمه أن الانسان يميل عادة الى مناقشة ما يكتشفه عقله من حقائق ، ويميل الى التحقيق فيما يستطلع من أدلة . وهذا الاستعداد للتأمل والتفقد والمناقشة والتحقيق يعمل فى اتجاه مضاد للاستعداد للاستهواء . فكأن المواقف التى تبرز فيها القابلية للاستهواء . تتوقف فيها القوى النقدية عن العمل .

شروط الاستهواء :

وبدراسة المواقف التى يتم فيها الاستهواء نرى أنه يكون هناك مؤثر

ومتأثر ، وتكون الصلة القائمة بينهما بحيث تضعف من أثر القوى النقدية في المتأثر . فعلى أن ندرس في المواقف الاستهوائية ثلاث مجموعات من العوامل ؛ أحدها يتصل بالمؤثر ، والآخر يتصل بالتأثر ، والثالث يتصل بالعلاقات الواقعة بينهما ؛ على أن حالة كل من المؤثر والتأثر ، وحالة ما بينهما من علاقة أمور متغيرة نسبية . فقد أكون قابلاً للتأثر مع شخص دون شخص آخر . وقادراً على التأثير في شخص دون شخص آخر . وقد أكون قابلاً للتأثر مع شخص في موقف دون موقف آخر . ولهذا يجب أن تتأمل كل موقف على حدة . وبلغت «الجشالت» نريد أن ندرس المجالات الداخلية والخارجية والمؤهلة للاستهواء ، وبعبارة أخرى : ندرس مجال المؤثر ومجال المتأثر وما بينهما من مجال .

وبين المتأثر والمؤثر في أثناء انتقال الفكرة قدر مشترك يعاون على هذا الانتقال . فالفكرة تنتقل بين أفراد من جنس واحد بسهولة أكبر مما تنتقل بها بين الأفراد من أجناس مختلفة ، وكذلك بين أفراد الأمة الواحدة أو الدين الواحد أو الحزب السياسي الواحد أو بين الأقارب أو بين الأصدقاء . هذا القدر المشترك يكون في العادة وجدانياً من أساسه . وانتقال الفكرة بين أفراد المجموعة الواحدة يزيد من الصلة بينهم ، ويجعلهم أقدر على فهم بعضهم البعض الآخر . فكأن القابلية للاستهواء مبنية في هذه الحالات على ما هو موجود من الروابط الاجتماعية ، ويترتب عليها في نفس الوقت تنمية هذه الروابط . وتتوخد هذه الحالات أدلة مضادة للفكرة القائلة بأن القابلية للاستهواء استعداد فطري . ولكن هناك فرقاً بين الاستعداد العام والحالات الخاصة .

ويمكننا أن نتقل إلى شيء من التفصيل بدراسة المتأثر وحده ، ثم المؤثر وحده ، على أن نذكر دائماً أن الفصل بينهما ضرورة علمية وليست حقيقة واقعية ، إذ لا يمكن أن تفكر في أي منهما دون أن تفكر في الآخر وفيما بينهما من علاقة . فإذا أخذنا المتأثر نجده أكثر قابلية للاستهواء إذا كان في حالة جسمانية تضعف معها قدرته على التحقيق والنقد . فالمرضى يتأثر بما يسمعه عن نفسه ، وعن مرضه ؛ سواء أكان ما يسمعه صحيحاً أو مبالغاً فيه .

كذلك نجد الفرد في حالات التعب والانهاك والتخدير والخمول أكثر استعدادا لتقبل ما يشاع حوله من أفكار .

وإذا كان المتأثر جاهلا بموضوع معين فانه يميل الى أن يتقبل بسهولة ما ينقل اليه عن هذا الموضوع . ومن أمثلة ذلك أن كان أحد الطرفاء يتناول مع صديق له طعام « المكرونة » وهو يعلم أن صديقه بحكم نشأته لا يعرف شيئا عن أصل هذا الطعام ، فيسأل الطريف صديقه عن « شجرة المكرونة » كيف يكون شكلها، فرد عليه الصديق قائلا: انه يلزم أن تكون هذه الشجرة ضخمة تتدلى منها « المكرونة » في صورة أفرع طويلة . ولم يكن الصديق مازحا في رده، وانما كان جادا يعتقد أن صديقه لم يخدعه بسؤاله عن حقيقتها . وتحليل هذا أن المؤثر يعلم بجهل صاحبه ، والمتأثر واثق من علم صاحبه ، وقد وضع المؤثر سؤاله بحيث لا يحقق المتأثر فيما اذا كانت « المكرونة » تزرع أو لا تزرع ، وانما وضعه بحيث يسلم المسئول تسليما كاملا بأنها تزرع ، وليس عليه في هذا الموقف الا أن يتصور شكلها النباتي . ومن أمثلة ذلك أيضا أن راجت شائعة في انجلترا عام ١٩٢٨ بأن حيوانا كبيرا جدا يظهر بعد الغروب من احدى بحيرات « اسكتلندا » أطلق عليه اسم Lechnees Monster ، وكتبت عنه الصحف ذاكرة أن بعض السكان قد رأوه وفزعوا منه . وانقسم الناس حيال هذه الشائعة الى قسمين ، فالمتعلمون منهم اعتبروها نوعا من التوهم ، أما الجاهلون فانهم صدقوها وعملوا على نشرها . من كل هذا يتبين أن جهل المتأثر من العوامل الأساسية التي تيسر قبول الأفكار .

وكل حالة نجد فيها أن المتأثر أضعف بالفعل من المؤثر — أو يشعر أنه أضعف منه — نجد فيها سهولة تقبله للأفكار التي تصدر اليه منه . ومن أمثلة ذلك قصر الذكاء عند المتأثر اذا قيس بذكاء المؤثر . ولهذا كان الأغبياء وضعاف العقول في جملتهم أكثر قابلية للاستهواء من غيرهم . وبهذا القياس نفسه نجد الأطفال أكثر تقبلا لأفكار الكبار ، والنساء أكثر تقبلا لأفكار الرجال ، والجماهير أكثر تقبلا لأفكار الزعماء .

ويلاحظ كذلك أن تعلق المرء بفكرة سابقة ، أو بحالة وجدانية معينة ، يجعله أميل الى اتجاه من ناحية دون الأخرى . فالذى يعتقد مذهبا دينيا أو مبدأ سياسيا أو اتجاها عنصريا تجده أميل الى تقبل الأفكار المشابهة لما عنده من اتجاهات . لذلك الخائف . فانه يكون مستعدا لتقبل الأفكار التى تشاع حوله اذا كانت من النوع الذى يزيد من الشعور بالخوف . فقد لوحظ فى الحرب العالمية الثانية أنه سهل نشر الدعايات الكاذبة بشأن هجمات الألمان ومبلغ احتمال فتكهم بمن يقاومونهم . وبلغ الأمر بالناس أنهم كانوا يسعون وراء هذه الأخبار ، ويتبعون فى سعيهم أساليب كانت تحرمها السلطات . كذلك الذى ينتمى الى دين معين تطربه الألحان وتسرده الأجواء والطقوس والتقاليد المرتبطة بهذا الدين . بينما اذا ذهب نفس الشخص لزيارة معبد تقام فيه طقوس دين آخر غير الذى يعتنقه ، فإن ما يسمعه فى هذا المعبد من ألحان وتعاليم ، وما يراه فيه من تقاليد وصلوات قلما يبعث فى نفسه الطرب والسرور بالقدر الذى تبعثه فيها طقوس دينه وتقاليدده . على أن الحالة الوجدانية الناشئة فى هذا المثال مبعثها التجاوب الكائن بين ما لدى الشخص من عقائد وأفكار ، وما يشاع حوله منها .

نرى من كل ما تقدم أن استعداد المرء لتقبل أفكار غيره تقبلا استهوائيا يمكن أن يتأثر بعوامل مختلفة ، منها ما بين المؤثر والمتأثر من تشابه أو من علاقة عاطفية ، ومنها الحالة الصحية والجسمية المؤقتة والدائمة ، ومنها المستوى العقلى للمتأثر ، كمبلغ علمه بالموضوع ، وكمقدار ذكائه ، ومنها كذلك ما عليه المتأثر من حالة وجدانية ، وما عنده من عقائد وأفكار تجرفه فى اتجاه دون آخر . على أننا قد نجد الشخص ذكيا عالما ومع ذلك فإننا نجده مستعدا لتصديق ما يوحى اليه به من أفكار .

فاذا انتقلنا الى المؤثر لبحث العوامل التى تجعله أكثر قدرة على التأثير وجدنا فيه صفات تخالف ما تقدم ذكره عن المتأثر . فنجد مثلا أن العلم بالموضوع ، وقوة الشخصية ، وارتفاع مستوى الذكاء وما الى ذلك ، كلها تعاون صاحبها على نقل فكرته الى غيره .

يضاف الى هذا أن المؤثر اذا كان له صيت في ناحية ما ، فان هذا الصيت يسهل له نقل أفكاره الى غيره ؛ فصيت العلماء يجعل كلامهم أكثر تأثيرا في سامعيهم حتى ولو لم يدلوا بالأدلة الكافية على صحة ما يقولون . وهذا بعينه ينطبق على تأثير الزعماء الدينيين والسياسيين . وهذا يفسر ما نراه من سهولة تصديق الناس لما تنشره المطبعة ، وكذلك لما يصدر عن الحكومات هذا الا اذا كان هناك عداة من القارىء لمصدر الفكرة مؤلفا كان أو حكومة .

ومن عوامل التأثير التكرار ؛ فالاعلان الذى يتكرر فى أوقات مختلفة غير متباعدة نجده يترك أثرا قويا فى نفوس القراء . ويلاحظ هذا فى ميادين التجارة والأعمال ، وفى الدعاية للكتب و « الأفلام السينمائية » . ونرى أن مجرد كثرة انتاج المؤلف أو تكرار ظهور الممثل فى أفلام متعددة قد يكفى لجعله أقرب الى نفوس الناس من غيره . وقد استغلت الدول المتحاربة فكرة الاعلان المتكرر عن طريق الاذاعة والصحافة والنشرات لتقوية الروح المعنوية فى جانبهم وتحطيمها فى الجوانب الأخرى . وقد أوجد الاعتماد المنظم على هذا الأسلوب مصطلحا جديدا يعرف بحرب الأعصاب .

وهناك صلة بين التكرار والصيت ، فتكرار فكرة معينة بصورة متنوعة خاصة يخلق لها فى نفوس الناس صيتا يسهل قبولها . ويعتمد الناس فى تمجيد اسم شخص معين ، أو تشويه اسم شخص آخر أو فى اعلاء قيمة سلعة معينة ، على الاكثار من التحدث أو الكتابة فى نواحي الكمال أو النقص مما يؤدى الى خلق الصيت فى الاتجاه المطلوب .

وهناك عامل آخر يرتبط بالموقف ارتباطا عاما ، وهو وجود الفرد ضمن جماعة ؛ وذلك من شأنه عادة أن يضعف القوى النقدية فى الفرد . وهذا يحدث بصورة أوضح اذا كانت الجماعة كبيرة العدد ؛ فكبر العدد يوهم — بطريقة لاشعورية — كل فرد على حدة باقتناع البقية بما يجرى ، أو بما يقال . ولكبر العدد أثر آخر . وهو أن كل فرد يخشى نقد الباقيين اذا اعترض منفردا . ويلاحظ أن احتمال ظهور تصدى الجماعة للفرد المعارض

يزيد بزيادة عدد أفراد الجماعة . وهذا الذى نلاحظه — من ميل الفرد الى الانسحاق مع الباقين فى اجتماع كبير — نجدّه أيضا فى ميل الأفراد الى عدم الخروج على الجماعة بوجه عام فى تقاليدھا وآدابھا وعاداتھا .

ونلاحظ أن الفرد اذا كان فى جماعة صغيرة ، فاننا نجدّه غالبا يميل الى الاعتراض والمناقشة ، وذلك لأن درجة الاقناع المحيطة بالفرد فى اجتماع صغير أقل منها فى اجتماع كبير ، ولذا كان الانسحاق مع بقية أفراد الجماعة أقل فى هذه الحالة منه فى الحالة السابقة . ونجد أن خوف الفرد من تصدى بقية أفراد الجماعة أقل احتمالا للوقوع ، وذلك بسبب قلة العدد . ولهذا السبب كان تجميع الطلاب فى مجاميع صغيرة ، لا يزيد عدد كل منهما عن العشرين ، أكثر تشجيعا للمناقشات الفردية التى من شأنها أن تزيد من ثقة الطالب بنفسه ، وتظهره على نواحي قوته وضعفه . وهذا لا يتوفر فى حالة حشد الطلاب فى مجاميع كبيرة لتلقى محاضرات بصورة سلبية لا يسمح لهم فيها عادة بالاعتراض أو المناقشة . ولهذا يميل الزعماء الدينيون والسياسيون الى بث أفكارهم ومبادئهم ودعواتهم فى اجتماع كبير العدد . وقد سار على هذا المنهج « هتلر » ، و « موسوليني » ، وقادة الثورة الفرنسية ، وغيرهم .

وقد تكون الجماعة عاملا مساعدا ، فتعمل كوسط ملائم اذا وجد فيه الشخص فانه يمتص الفكرة الصادرة عن زعيم أو خطيب بسهولة أكبر مما لو كان منفردا أو فى جماعة صغيرة . ويمكن أن تكون الجماعة عاملا أصيلا ، فتكون الفكرة منتشرة فى أفرادها بحيث يكونون مصدرا لها . ولما كان المصدر عددا من الأفراد — وليس فردا واحدا — كان أثره كبيرا بفعل التكرار من ناحية ، وبفعل التأثير الجماعى من ناحية أخرى . وهذا واضح فى الانتقال المستمر للتقاليد والعقائد والمبادئ من جيل الى آخر . والمشاهد أن الأثر الاستهوائى للسلوك أكبر بكثير من الأثر الاستهوائى لمجرد الكلام . فاذا كنت سائرا فى الطريق مصطحبا طفلى ، واعترضنا كلب هائج فقد أقول له : كن شجاعا ، ولا داعى للخوف من الكلاب ؛ ولكن قد يبدو فى حركاتى ونبرات صوتى ما يدل على ما عندى من خوف . وفى هذه

الحالة لا يجدى ما أقوله للطفل ؛ ونما أجده يأخذ فكرته من سلوكي وما يدل عليه . ذلك لأن سلوكي كان تعبيراً صادقاً بالرغم مما وجهته الى الطفل من كلام أقصد به مخلصاً ابعاد الخوف عنه . ومثال آخر لاستهواء السلوك : الشخص الذي يسب صغاره ، ثم يلقنهم عبارات يحاول أن يعلمهم بها أن السب خصلة مردوثة . ونجد على هذا المنوال أمثلة كثيرة في العادات الصحية وعدم التمسك بها ثم حث الصغار على اتباعها . وينطبق هذا على ميادين الدين والتقاليد والأخلاق وما الى ذلك مما يبين أهمية القدوة العملية .

أنواع الاستهواء :

سبق أن أشرنا — ضمن ما تقدم — الى تقسيمين لأنواع الاستهواء . فأحد هذين التقسيمين يضع نوعين للاستهواء ؛ هما : الاستهواء الفردي ، والاستهواء الجماعي . ففي الاستهواء الفردي يكون التأثير قائماً بمفرده ، أما الاستهواء الجماعي فيكون فيه المتأثر فرداً ضمن جماعة . أما التقسيم الآخر فانه يضع نوعين آخرين ؛ هما : استهواء السلوك ، واستهواء الكلام ، والفرق بين النوعين أن المؤثر في أولهما مؤمن بفكرته ممتلىء بها ويظهر أثر امتلائه بفكرته وسلوكه دون قصد أو تعمل . أما النوع الآخر فان الفكرة فيه قد لا تعدو مجرد التعبير الكلامي . بهذا قد تكون سطحية لا أثر لها في سلوك المؤثر ، مما يجعله يبدو أحياناً على شيء من التناقض ، لانعدام التناظر بين سلوكه وكلامه . وهو في غالب الأحيان غير مدرك لهذا التناقض .

وهناك تقسيم ثالث يضع نوعين آخرين للاستهواء ؛ أحدهما يسمى الاستهواء الايجابي ، والآخر يسمى الاستهواء الضدي . فنجد أن المتأثر في حالة الاستهواء الايجابي يتقبل فكرة المؤثر . فاذا سمع شخص من صديق له أن الجو بارد فقد يوافق على فكرته ، وقد يذهب الى أبعد من ذلك فيحس احساساً واضحاً ببرودة الجو . هذا مثال يبين ما يحدث في الاستهواء الايجابي . وفي مثال آخر قد يسمع الشخص مديحاً في شخص آخر ، فنجد انه لا يتقبل الفكرة بل يتقبل عكسها ، فيعقب على ما يسمعه من مديح بعبارات الذم والهجاء والميل الى ابراز العيوب ؛ وهذا ما يحدث في مواقف الاستهواء الضدي .

وتختلف درجة الاستعداد للاستهواء الضدى من شخص الى آخر ،
وفى الشخص الواحد من موقف الى آخر ، أو من وقت الى آخر .
فبعض الناس — وبخاصة هؤلاء الذين لديهم ما يسمى « عقدة
النقص » — نجد عندهم استعدادا عاما للاستهواء الضدى ، يظهر عادة
فى كل المواقف ومع كل الأشخاص . وإذا كان هذا النقص مرتبطا بناحية
معينة فإن هذا الاستعداد يظهر عادة فى المواقف التى تبرز فيها هذه
الناحية . ونلاحظ أن بعض السيدات لديهن استعداد للاستهواء الضدى
مع غيرهن من السيدات بدرجة قد لا تظهر لديهن مع الرجال . وقد يعلى
هذا بأن شعورهن بالنقص مع الرجال قد يبلغ حدا يجعلهن يسلمن لهم
بكل ما يقولون أو بأغلبه . أما اختلاف درجة الاستعداد للاستهواء الضدى
فى الشخص الواحد من وقت لآخر فقد نجد أن بعض الأشخاص لا يظهر
لديهم هذا الاستعداد الا اذا طرأت عليهم حالة جسدية أو عقلية تؤدى بهم
الى التوتر والانفعال . وهم لا يدركون عادة موقفهم هذا الا بعد انتهاء
الأزمة الطارئة . ويلاحظ أن توافر العواطف الايجابية كالمحبة والاحترام
والتقدير والاعجاب ، يصحبه عادة استهواء ايجابى . أما توافر العواطف
السلبية كالكرهية والنفور والازدراء فيصحبه عادة استهواء سلبى .

وهناك تقسيم رابع يدخل تحته نوعان ؛ أحدهما : الاستهواء الغيرى ،
والآخر : الاستهواء الذاتى . ففى الاستهواء الغيرى نجد متأثرا ومؤثرا
متميزين فى الظاهر أحدهما عن الآخر . أما الاستهواء الذاتى فيمكن توضيحه
بالمثال الآتى : كان أحد مرضى الربو نائما فى حجرة فى فندق ، وصحا عن
نومه وهو يشعر بضيق شديد ، فتحسس موضع النافذة حتى لمس زجاجها ،
وحاول فتحها فلم ينجح ، فلجأ الى كسر زجاجها ليفرج عن نفسه . ولما كسر
الزجاج أخذ نفسا عميقا ، وأحس بعد ذلك بهدوء وراحة شديدين ، ثم عاد
الى نومه . ولكنه عندما استيقظ فى الصباح راعه أن يجد أن الذى كسره
لم يكن زجاج النافذة ، وانما كان زجاج ساعة حائط كبيرة كانت موجودة
الى جوار النافذة . وهذا مثال آخر حدث لى : استيقظت فى يوم من الأيام

وأنا أشعر بصداع شديد ، فأخذت في جيبي قرصين من « الأسبرين »
لأتناولهما عندما أصل الى مقر عملي حتى لا أتعرض للبرد في الطريق
بين المنزل ومقر العمل . ولكنني بعد أن وصلت انهمكت في عملي بنشاط
غير مألوف دام أربع ساعات متواصلة، وعزوت ذلك النشاط الى «الاسبرين»
وبدأت أعدد لنفسي فضائله ومزاياه وأثنى على منتجه . وحدث في أثناء هذا
ان وضعت يدي في جيبي فاذا بي أجد فيه « الاسبرين » كما هو لهم يمس
ويحدث لى أحيانا أن أجد نفسي متعبا ؛ ومع هذا اشعر بمقدرة على
مزاولة العمل . ولكن يحدث كذلك أن اختبر درجة حرارتي في مثل هذه
الحالات ، وفي اللحظة التي أجد فيها أن درجة الحرارة على شيء من الارتفاع
يزداد عندي الشعور بالتعب وبآثار المرض . فالشعور الاضافى بالتعب نشأ
عن معرفتي بارتفاع درجة الحرارة . ويلاحظ عادة أن الانسان يمكنه أن
يسير في طريق ضيق لا يتجاوز عرضه نصف المتر ، ولكنه يعجز عن السير
في طريق يبلغ عرضه ضعف الطريق الأول أو ثلاثة أمثاله اذا كان على
جانبي هذا الطريق هوتان سحيقتان أو ماء يجرى .

نلاحظ في أمثلة الاستهواء الذاتى أن شيئا من التأمل يكشف لنا عن
وجود عنصر التأثير الغيرى . فزجاج النافذة ، وأقراص « الاسبرين » ،
ومقياس الحرارة ، وشدة ارتفاع الطريق مع منظر الهوتين أو الماء الجارى
حواله ؛ كل هذا يعمل عمل المؤثر . من هذا نرى أن ما يسمى بالايحاء الذاتى
لا يختلف عن الايحاء الغيرى في جوهره .

وإذا انتقلنا الى الاستهواء الغيرى نجد أن المتأثر لا يعترف عادة بأنه
يمتص أفكار غيره ، وانما يؤكد للناس ولنفسه أن أفكاره نتيجة اقتناع
ذاتى . ولهذا يتبين أن الاستهواء الغيرى يتوافق فيه العنصر الذاتى .
وعلى هذا لا يختلف الاستهواء الغيرى عن الاستهواء الذاتى في جوهره .

الاستهواء والعلاج النفسى :

إذا حللنا العملية الاستهوائية ، وجدنا أن الموقف يتطلب خضوع المتأثر
للمؤثر ؛ فاذا كانت فكرة المتأثر عن المؤثر أنه قوى الشخصية أو غزير العلم

فان المتأثر يكون خاضعا ، ويكون المؤثر مسيطرا في العملية الاستهوائية ؛ ومعنى هذا أن تقبل المتأثر لفكرة المؤثر فيه تسليم ضمنى بالنقص . وهذا مما يفسر كون عملية الاستهواء عملية عقلية لاشمورية . وهذا بدوره يفسر مبلغ القوة التي تلاحظ في تأثير عملية الاستهواء .

لهذا كان الدور الذي لعبه الاستهواء في العلاج النفسى دورا بارزا . فقد كان المعالجون النفسيون يلجئون اليه قبل ظهور « فرويد » ، وما زال الكثيرون يمارسونه حتى اليوم . وقد كان « كرويه » في مدينة « نانسى » من أعمال « فرنسا » اماما لمدرسة الاستهواء ، وكان يوحى الى المريض بأنه في تحسن مستمر ، وكان يدفعه الى أن يوحى الى نفسه أنه في تقدم مضطرد . ولا يكاد المريض يقوم من نومه في صبيحة كل يوم حتى يردد لنفسه أنه يشعر بالتحسن في صحته . وقد عالج بهذا حالات الصداع والخمول وما الى ذلك . والسرفى عدم اعتماد المعالجين النفسيين على الاستهواء اعتمادا كلياً أنه يتناول العرض دون السبب ، وهذا هو ما تغلب عليه التحليل النفسى ، ويلجأ المعالجون النفسيون الحديثون الى الجمع بين الاستهواء والتحليل النفسى ، وغيرهما من الطرق المكتملة لهما .

ويصل الاستهواء الى أقصى درجاته في حالات النوم المغناطيسى . ولكن الالتجاء الى التنويم المغناطيسى ليس دائما مرغوبا فيه لأن نتائجه فى العادة وقتية ، وفى كثير من الأحيان تكون نتائجه عكسية . ولهذا نرى عدم الدخول فى تفاصيله بالرغم من أن له أسسا علمية . وقد أحيط هذا الموضوع لسوء الحظ بكثير من الشعوذة ، وهى ليست من علم النفس فى شىء .

تجارب فى الاستهواء :

من بين التجارب التى أجريت فى هذا الميدان تجربة قام بها « ساتو » . وقد كان يعتمد فى علاجه على الاستهواء الجمعى . خطر له يوما أن يجرى تجربة بأن قدم لمرضاه كئوسا من شراب ، وبعد أن شربوا ما فيها أبدى لهم أسفه على أنه قد أخطأ فقدم لهم سائلا مقينا بدلا من النبيذ الذى قصد أن يقدمه . وما كاد ينتهى من عبارته حتى بدأ مرضاه تظهر عليهم

علامات التفرز ويخرجون من الغرفة للتقيؤ واحدا بعد الآخر . وقد تبين بتجربته هذه مبلغ قوة تأثير الاستهواء الجمعى .

وقد قام «فلوجل» بتجربة أوحى للنائم فيها بأن يمشى على يديه ورجليه ثلاث مرات حول الحجرة ، وأن يبدأ هذا بعد زمن محدد من ايقاظه . فلما أوقظ النائم ، ومضى الوقت الذى حدد له فى أثناء نومه قال انه لا بد له على سبيل التريض من أن يمشى على يديه ورجليه حول الحجرة ، وقام بهذا العمل مبررا اياه بأنه ضرورة رياضية . وقد أثبت المجرى بها أن الفكرة الاستهوائية تتسلط على المتأثر ، ويصحبها عند تنفيذها شىء من التبرير .

وقد قام كذلك « افلنج » بتجاربه على تلاميذ المدارس . وفى احدى هذه التجارب كان يطلب من التلميذ أن يضع كفه على لوح نحاسى ، ويوحى اليه بأنه لن يستطيع قلب كفه بعد امرار تيار كهربائى خفيف فى اللوح النحاسى ، وقد نجحت هذه التجربة . وأجرى الى جانبها تجارب أخرى أثبت من مجموعها أن التلاميذ الأذكياء أقل قابلية للاستهواء عادة من التلاميذ الأغبياء . وقد تنوعت التجارب التى تجرى فى هذا الميدان تنوعا كبيرا ، مما يجعل من العسير الاستمرار فى سرد أمثلة من كل منها .

غير أننا يمكن أن نشير الى بعض التجارب البسيطة التى تجرى عادة فى معامل علم النفس . من ضمن هذه التجارب أن تعرض على المفحوص لوحة عليها عدد من الأشكال والموضوعات ؛ عليها مدية ومقص ومفك ، وعليها طوايح بريد ذات ألوان مختلفة ، وعليها عدد من الأزرار بعضها أبيض وبعضها أسود وغير ذلك . وبعد أن يطلع المفحوص على اللوحة يطلب منه الاجابة عن أسئلة من النوع الآتى :

أكان الزرار الأبيض مثبتا بخيط أبيض أم بخيط أسود ؟
أكانت الفتاة التى فى الصورة واقفة بجانب الباب أم كانت تنظر من النافذة ؟

أكان طابع البريد الأخضر مختوما بخاتم البريد أم غير مختوم ؟
من أى نوع كانت الموسيقى الموجودة فى الصورة ؟
وقد صيغت هذه الأسئلة وأمثالها بحيث توحى باجابة معينة قد لا تكون

ممكنة بالنسبة للصورة المعروضة . ففي السؤال الثانى قد لا تكون هناك فتاة بالمرّة ، ومع ذلك يجيب المسئول بما يدل على وجودها . كذلك صياغة السؤال الثالث يمتنع معها الشك فى أن هناك طابعا أخضر ، وعلى المسئول أن يجيب اذا كان الطابع الأخضر مختوما أو غير مختوم . وتشبه هذه الأسئلة السؤال الذى سبق أن أشرنا إليه ، والذى وجهه شخص الى آخر عما يظن أن تكون عليه « شجرة المكرونة » .

وفى تجربة أخرى تقدم للمفحوص أوزانا متساوية ذات أحجام مختلفة ، ونطلب منه أن يقارن بينها بيديه ليحكم أيها أثقل وأيها أخف ، فيحكم عادة أن الأحجام الصغيرة أثقل من الأحجام الكبيرة رغم تساويها فى الوزن . ذلك لأن الحجم الكبير يوحى بوزن كبير ، فتتهياً العضلات لحمل وزن كبير ، ولهذا يبدو الوزن أخف مما كان ينتظر . أما الحجم الصغير فانه يوحى بوزن صغير ، فلا تتهياً العضلات الا بما يكفى لحمله ، ولهذا يبدو أثقل مما كان ينتظر .

ونلاحظ فى خبرتنا اليومية أننا اذا أقدمنا على حمل حقيبة نظن أنها متينة فانها تبدو فى اللحظة التى نرفعها فيها أخف كثيرا من وزنها الحقيقى ، ويحدث العكس عند الاقبال على حمل حقيبة نظن أنها فارغة .

الاستهواء والتربية :

يبدو مما تقدم أن القابلية للاستهواء يمكن الافادة منها الى مدى بعيد فى نقل الأفكار الى الناس عامة ، والى الأطفال بصفة خاصة . أما الأطفال — بحكم قلة نضجهم العقلى ، وضعفهم اذا قيسوا بالكبار. — فانهم يمتصون كثيرا مما حولهم من الأفكار ، فيمتصون من آباءهم أفكارهم عن السلوك — المقبول منه وغير المقبول — ، كما يتقبلون أفكارهم عما يرونه جميلا ، وعما يرونه غير جميل ، وهكذا يمتصون كثيرا من الأفكار عن الدين والتقاليد والقيم الجمالية والقيم الخلقية . ويتم هذا الامتصاص دون قصد، فينشأ الطفل شاعرا بانسجام فى أوساط دون أخرى ، بسبب ما اكتسبه من الجو المحيط به . ولذا كان من المبادئ الأولية الهامة ، أن الآباء اذا عنوا بالتمسك

بخير العادات وأحسن المبادئ ، فانهم لا يكونون في حاجة الى بذل جهد كبير في تربية أبنائهم . وهذا الذي قلناه عن الآباء وما يحيط بهم من جو المنزل نقوله عن المدرسين وما يحيط بهم من جو المدرسة ، واذا أمكن أن يراعى هذا في المجتمع الأكبر يكون له أثر بعيد المدى .

ومن هذا نفهم أن الاستهواء له أثر كبير في حفظ التراث الثقافي من جيل الى جيل ، على أن هذا لا يعني أن نعتمد على الاستهواء اعتمادا يترتب عليه اضعاف القوى النقدية ، وانما يجب أن يكون هناك مجال للمناقشة والتأمل والتعليل ، ويجب أن تترك للطفل حرية الاختيار ، والبت لنفسه وبنفسه في كثير من المناسبات ، كاختيار الملابس ، واختيار ما يقرأ من كتب ، وما يشاهد من أفلام سينمائية ، وما يتابع من هوايات ، ومن يصاحب من أصدقاء وما الى ذلك . فعلى الوالد أو المدرس أن يفصح عن آرائه ، وأن يسمح للناشئ أن يفصح كذلك عن آرائه . وعلى الكبار أن يروضوا أنفسهم على حسن الاستماع لآراء الصغار ، ثم عليهم أن يدعوا لهم فرصة عادلة للمناقشة ، والأخذ والرد ، ثم على الآباء أن يروضوا أنفسهم أيضا على ترك الناشئ يختار طريقه بعد هذا ، فيفيد من تجاربه ومن اصاباته وأخطائه . كما يفيد من المستويات الثابتة التي يلمسها في والديه ومدرسيه وجو المنزل وجو المدرسة .

ويمكن المدرس أن ينقل كثيرا من اتجاهاته وعاداته الى تلاميذه ، ولكن عليه أن يعود تلاميذه نقدا ما يقرءون وما يسمعون ، وأن يعودهم الفحص العلمي لما يقع في حدود خبرتهم من تجارب ، ويخطيء بعض المدرسين اذ يظنون أحيانا أنهم يستنبطون الحقائق في تدريسهم من تلاميذهم . والواقع أنهم عن طريق الأسئلة الجزئية الكثيرة يوحون بجزء كبير من الاجابة ، فلا يتاح للتلميذ مجال للتفكير الشخصي . ومن أمثلة ذلك مدرس يريد أن يلقي درسا في خصائص كل من الخشب والزجاج فيلقى على تلاميذه أسئلة تحمل نصف الاجابة أو أكثر من نصفها مثل :

أي هاتين المادتين معتم وأيهما شفاف ؟

أيهما قابل للاحتراق ، وأيهما غير قابل للاحتراق ؟
وكان الواجب أن يلقي المدرس على تلاميذه سؤالاً عاماً ويدعوهم
يفكرون ، وليكن هذا السؤال مثلاً :

ما الفرق بين الخشب والزجاج ؟

فيضطر الأولاد أن ينقبوا في خبراتهم السابقة ، ويدلى كل منهم بفرق
من الفروق فيجمع المدرس هذه المادة ، ويستعين بهم في تركيبها ، فيتكون
منها درس مستنبط حقا من أفكار التلاميذ وخبراتهم .

يتضح من كل هذا أن الاستهواء يلعب دوراً هاماً في تربية النشء ،
غير أنه لا يجوز الاعتماد عليه بالدرجة التي تؤدي إلى إضعاف شخصياتهم ،
وقدرتهم على النقد والتفكير المستقل .

المراجع

1. Brown, W. : Suggestion and Mental Analysis.
2. Fox : Educational Psychology.
3. Keatinge : Suggestion in Education.
4. Mc Dougall : Social Psychology, Ch. IV.
5. Ross, J. : Groundwork of Educational Psychology
6. Tuckey, L. : Hypnotism and Suggestion.

٧ - القوصى : أسس الصحة النفسية .

الفصل العاشر

المشاركة الوجدانية

طبيعتها:

يحدث أحيانا أن يجد المرء نفسه في جمع من الناس ، ثم يضحكون جميعا لفكاهة قيلت فيضحك معهم ، ويستغرق أحيانا في الضحك ، ثم يسأل من بجواره أن يعيد له الفكاهة لأنه لم يسمعها جيدا . كذلك يحدث أحيانا أن يكون المرء وسط جماعة من الباكين فلا يتمالك نفسه اذ ذاك من البكاء . وهكذا نجد حالات الهياج ، والغضب ، والحزن ، والمرح ، والاشمئزاز ، والألم تنتشر بين الناس بسهولة كبيرة . ونشاهد مثل هذا عند الحيوان ، فنباح الكلب يستثير نباح الكلاب المجاورة ، ويلاحظ الذين يعيشون في الريف أن نباح الكلاب يبدأ منخفضا وفي دائرة محدودة ، ثم يعلو وينتشر الى مسافات بعيدة على شكل موجات يتبع بعضها بعضا . ولا يكاد بعض الديكة يرسل صيحته عند الفجر حتى تتجاوب معه بقية الديكة . وتعلو هذه الصيحات وتنتشر بنفس الطريقة التي سبق ذكرها . ونرى أيضا أن الشاة تنزع وتجرى فنجد بقية القطيع يجرى من الفزع تبعاً لذلك .

وفي هذه الأمثلة نجد أن الحالة الانفعالية تنتقل من مؤثر الى متأثر بعد أن يدرك المتأثر المظاهر الخارجية لهذه الحالة عند المؤثر فكأن الشرط الأول لهذا النوع من الانتقال أن يكون لدى المؤثر حالة وجدانية قوية لها تعبير ظاهري واضح ، يدركه المتأثر ادراكا حسيا ، فتنشأ عنده حالة وجدانية مشابهة لحالة المؤثر . وانتقال الحالات الوجدانية بين الكائنات الحية على هذا النوال يسمى المشاركة الوجدانية .

وتوجد في عالم الطبيعة ظواهر مشابهة لهذه الظاهرة . فنعلم في علم الصوت أنه اذا كان لدينا صندوقان صوتيان « ا ، ب » قابلان للاهتزاز بنغمة صوتية واحدة، ووضعنا متجاورين، واهتز «ا» بواسطة شوكة رنانة فاننا نجد أن «ب» يستجيب لاهتزازه بأن يهتز بالنغمة نفسها دون تأثير ظاهري آخر. كذلك نعلم في علم الكهرباء أنه يمكن احداث التيارات الكهربائية بالتأثير فيما يسمى بالملف الثانوى الذى لا يمر فيه من الأصل تيار ، وذلك عند مجرد اقترابه مما يسمى بالملف الابتدائى الذى يمر فيه تيار أصيل . ويقرب هذان المثالان الى أذهاننا فكرة مجال المؤثر ، ومجال المتأثر ، وما بينهما من مجال في الظاهرة النفسية التى نحن بصدددها .

ويخطئ بعض الناس في تعبيراتهم العامة عن المشاركة الوجدانية . فاذا قرأ الواحد منهم خبرا عن وفاة عزيز ، فقد يعتبر تأثيره مشاركة وجدانية، مع أنه يشترط للمشاركة الوجدانية ادراك التعبيرات الحسية الظاهرة للحالة الانفعالية . أما ما ينتج عن قراءة الخبر في الجريدة فليس في العادة الا تأثرا ناشئا عن استثارة الذكريات والعواطف ، وناشئا عن تقدير ما ينجم عن الوفاة من نتائج . ومن أمثلة ذلك أننا نقرأ خبرا مؤداه أن فلانا قضى نحبه ، وهذه الطريقة في التعبير هى مجرد نقل خبر بأسلوب غير محمل بالشحنة الانفعالية التى تصحب عادة مثل هذه الأخبار ، فعندما يقرؤه أحد الناس لا يتأثر بالجملة الاخبارية في ذاتها ، ولكنه يتأثر بما قد يترتب على صحة هذا الخبر من نتائج . ليس معنى هذا أن كل ما يقرأ فى الصحف ينطبق عليه ما قلناه من الصفة الاخبارية المجردة . فقد نقرأ فى الصحيفة قصيدة مشحونة بالتعبيرات الانفعالية التى تنتقل الى قارئها ، وبهذا نجد أنفسنا أمام مثال من أمثلة المشاركة الوجدانية المرتبطة بالتعبيرات اللغوية المكتوبة . والمتأثر فى هذه الحالة هو القارئ أما المؤثر فهو الشخص الذى ألف القصيدة والتعبير الظاهري للانفعال الذى يساعد على نقل الحالة الانفعالية من المؤثر الى المتأثر هو القصيدة الشعرية نفسها .

شروطها :

وإذا درسنا المواقف التي يتم فيها حدوث المشاركة الوجدانية فانا نجد أنها تتم عادة بصورة أوضح عند النساء أكثر منها عند الرجال ، وعند الأطفال أكثر منها عند الكبار ، وعند الأغبياء أكثر منها عند الأذكياء ، وعند الجهلاء أكثر منها عند العلماء . وعند الجماعات أكثر منها عند الأفراد . ولعل السر في هذا واضح . فإذا قورنت النساء بالرجال ظهر أن الحياة العقلية للنساء أكثر تشبعا بالاستعداد للتأثر الانفعالي منها عند الرجال ، وإذا قورن الأطفال بالكبار وجدنا أن نضج الكبار وذكاءهم وخبرتهم كلها تساعدهم على تنظيم انفعالاتهم وعلى ضبطها ، مما يجعل الأطفال بوجه عام أكثر قابلية للتأثر الانفعالي من الكبار . وما قيل في الموازنة بين الأطفال والكبار يمكن أن يقال في الموازنة بين الأغبياء والأذكياء ، وبين الجهلاء والعلماء .

ويلاحظ — كما قلنا — أن انتقال الحالات الانفعالية بين الأفراد إذا وجدوا في جماعة كبيرة يكون أسرع وأوضح منه إذا وجدوا في جماعة صغيرة . فالفكاهة التي تثير الضحك في جمع كبير من الناس ، قد لا تكون كافية لإثارة الضحك في أفراد مجموعة صغيرة . كذلك الخطبة التي تثير حماس جمع كبير حاشد ، قد لا تثير حماس اثنين أو ثلاثة يستمعون لها منفردين . والمعروف أن الأفراح يتزايد عنصر المرح فيها بتزايد عدد المشتركين فيها . كذلك المآتم يزداد قدر الحزن تزايداً كبيراً بزيادة أعداد المشتركين فيها . لهذا فانا نجد أن الناس قد درجوا في مختلف الأزمنة ومختلف الأمكنة ، وفي مختلف مستويات التحضر والثقافة على أن يعدوا العدة الخاصة لاستقبال أفواج من الناس يعاونون على تضخيم السرور أو تضخيم الحزن . والجماعة في هذه الحالة تلعب دور المؤثر والمتأثر . ولذلك نجد أن جماعة النسوة في المآتم تبدأ بحالة انفعالية على درجة معتدلة أول الأمر ، ثم تظل تتزايد وتكبر ، وفي أثناء هذا كله نجد الجماعة مؤثرة في نفسها متأثرة بنفسها .

بهذا نجد أن الأفراد يختلف بعضهم عن بعض في قابليتهم للمشاركة الوجدانية بحسب جنسهم ، أو سنهم ، أو درجة ذكائهم أو مبلغ ثقافتهم ، أو مقدار حجم الجماعة التي يوجدون بها . ونجد كذلك ان الأفراد يختلفون في هذا باختلاف أمزجتهم ؛ فهناك أناس يتأثرون بما حولهم من تعبيرات انفعالية تآثرا سريعا واضحا ، لا يمكن الربط عادة بينه وبين ما سبق ذكره عن الجنس أو السن أو الذكاء أو الثقافة أو الوجود في جماعة .

ويختلف الناس بعضهم عن بعض في الاتجاه الذي تأخذه عندهم المشاركة الوجدانية ، وذلك بحسب اتجاه استعدادهم للتأثر الوجداني ، فأناس أميل الى المرح ، وآخرون أميل الى الحزن . ونجد الصنف الأول يشارك في الأجواء المرحية أكثر مما يشارك في غيرها ، ونجد العكس في الصنف الثاني .

واستعداد الفرد للمشاركة الوجدانية يتغير من وقت الى آخر ، وذلك بحسب حالته من حيث الصحة أو المرض ، وراحة الجسم أو اجتهاده ، وهدوء الأعصاب أو تهيجها ، وكذلك بحسب الاتجاه النفسى الراهن . فانشخص في حالة المرض أسرع تأثرا بما يحيط به من حالات وجدانية منه في حالة الصحة . كذلك نجد الشخص المجهد سريع التأثر بما حوله من وجدانات واذا غمرت الشخص في لحظة ما حالة انشراح فانه يكون أكثر قابلية للتأثر بما يصادفه من أجواء المرح ، وأقل ميلا للتأثر بما قد يصادفه من أجواء الحزن ، بل نلاحظ أنه يرى المرح في كل ما يصادفه .

المشاركة الوجدانية والتماسك الاجتماعى :

يرى « مكدوجل » أن المشاركة الوجدانية تلعب دورا أهم مما تلعبه النزعات الاجتماعية الأخرى في احداث التماسك بين أفراد الجماعة . ويلاحظ أن الجماعات تميل الى التجانس من حيث الجو الوجداني الذى يشيع فيها ، واذا بدأ فرد في جماعة ما يشذ عنها في الحالة الوجدانية فانه سرعان ما يميل الى مسايرة الجماعة ، واذا لم يتمكن من هذا فان الجماعة

تميل عادة الى ابعاده عنها حتى يتم لها الشعور بالتجانس الوجدانى ، ويلاحظ هذا بصورة جلية فى الحالات الانفعالية الواضحة ، فاذا شمل الحزن مجموعة من الأفراد ، ثم دخل عليهم شخص فى حالة مرح ، فانهم يميلون الى التخلص منه ، الا اذا انسجم معهم فى حالتهم الانفعالية ، ويلاحظ أنهم فى هذه الحالات يكرهون أى مظهر من مظاهر المرح ، كذلك اذا كانت هناك مجموعة من الناس تشترك فى احياء حفل مرح ، فانها تتضايق ممن يظهر بينها بعلامات الأكتئاب ، وتميل الى التخلص منه حتى تحتفظ بالتجانس فى الجو المرح الذى يسود بينها .

المشاركة الوجدانية والتربية :

تقوم التربية فى جزء كبير منها بتهديب النواحي الوجدانية ، وتقوم كذلك بغرس القيم التى ترتبط بأنواع السلوك المختلفة ، ففى التربية الدينية مثلا نريد أن نشيء التلاميذ على الشعور بالتقديس والرهبنة والخشوع والشكران والعرفان بالجميل ، وهذه الحالات تشيع بصورة أيسر اذا وجد بين التلاميذ من المدرسين من يشعرون بهاشعورا قويا مخلصا ، فاذا رتبت الاجتماعات الدينية ، وساعد المدرسون تلاميذهم على استشعار هذه الحالات ، فانهم يشعرون بها . وتكرار هذه الاجتماعات ، وتكرار أساليب التربية الدينية الأخرى يمكن قطع مرحلة كبيرة نحو تكوين الاتجاه الدينى الصحيح .

ومثل هذا يمكن أن يقال فى التربية الجمالية ، فتذوق الصيغ الجمالية الراقية يجب أن يسود الأوساط التعليمية ، حتى يرتقى الذوق . وهذا لا يتأتى الا اذا كان الناظر والمدرسون يستجيبون للنتاج الفنى الراقى دون غيره ، بهذا نرتقى بتلاميذنا فى تذوق الموسيقى ، والتصوير والتمثيل ويعاون على هذا الارتقاء ما يقام من معارض ، ومتاحف ، وحفلات وما يقوم به الناظر والمدرسون من تشجيع واستجابة . كذلك تجب العناية بتجميل مبنى المدرسة وحديقتها وحجراتها ، ومكاتبها ، وناديتها ، وأثاثها ، تجميلا يساعد على ارتقاء الذوق عند التلاميذ .

ويجدر بنا أن نشير الى وجوب العناية بهذه الناحية ، ونشير كذلك الى أن تدريس الأدب من شعر ونثر يكون في كثير من الأحيان قاصرا على شرح بعض المعاني والمفردات ، وعلى حفظها بصورة مجردة من التأثير ، والشعور بجمالها ، بينما اذا قام المدرس باستشعار ما في القصيدة من نواح جمالية وانسانية في شيء من الاخلاص ، فانه يمكنه أن يجعل تلاميذه يهتزون بهذه النواحي اهتزازا يكون له أثر بعيد في التربية الأدبية .

وبنفس الطريقة يمكن اثارة الاستحسان والاستهجان لمختلف أنواع السلوك ، فاستحسان الكبار للسلوك الطيب يشيع مثله في نفوس من حولهم من الأطفال . وكذلك يمكننا أن نعود تلاميذنا الارتياح لفعل الخير ، ومشاركة الناس آلامهم ، وعدم الوقوف عند هذا ، بل نعودهم القيام ببعض الواجب نحوهم قياما يشعرهم بشيء من الارتياح للقيام بواجب انساني . من كل هذا نرى أن المشاركة الوجدانية يمكن أن تلعب دورا هاما في جانب من أهم جوانب التربية .

المراجع

1. Ginsberg : Social Psychology.
2. Mc Dougall : Social Psychology.
3. Ross E.A. : Social Psychology.

الفصل الحادى عشر

التقليد

سبق أن ذكرنا أن الاستهواء هو انتقال الأفكار ، وأن المشاركة الوجدانية هى انتقال الحالة الوجدانية من المؤثر الى المتأثر . أما انتقال انساوك نفسه فانه يسمى « التقليد » والتقليد ظاهرة موجودة بشكل واضح فى الحيوان الراقى ؛ بل له أهمية فى ترقى حياة الكائن الحى نفسه . فالتقليد يظهر بوفرة لدى الانسان . والقرودة . وبعض أنواع الطيور . والتقليد عامل هام فى تعلم الانسان طريقة المشى . والكلام . والأكل ؛ والشرب . وكثير من عاداته اليومية . وهو كذلك عامل هام فى تشكيل الحياة الاجتماعية .

فالانسان مقلد بطبيعته وكذلك القرود والبيغاء وغيرهما تقلد بطبيعتها ، أما أسلوب السلوك المنقول فهو مكتسب . وتوضيح هذا نقول : ان لدى الانسان استعدادا فطريا للتعبير اللغوى . ولديه كذلك استعدادا فطريا للتقليد . وبهذين الاستعدادين وتوافر شروط أخرى يمكنه أن يكتسب اللغة المحلية التى نشأ فى بيتها . وبهذا يتحدث من لغته الألمانية أو الإنجليزية أو العربية ، ويتحدث فى كل حالة من هذه الحالات باللهجة المحلية الخاصة . من هذا يتبين أهمية التقليد فى التعلم . وفى كسب أساليب السلوك التى نحكم عن طريقها أحيانا على مستوى صاحب هذا السلوك . فنعتبر أن هذا متمدن وذاك غير متمدن ، وأن هذا مهذب وذاك غير مهذب .

ويخلط بعض المشتغلين بعلم النفس بين الاستعداد للتقليد وعمليات التقليد . وواضح أن الاستعداد للتقليد أمر طبيعى فى الانسان والحيوان الراقى ؛ أما عملية التقليد - أو ما يقلده الانسان (أو الحيوان) بالفعل - من تشكيلات سلوكية - فانه يتوقف على توافر شروط معينة بعضها

كائن في الموقف^(١) ، وبعضها كائن في الانسان أو الحيوان . ويميل « بياجيه Piaget » الى التفريق بين الاستعداد للتقليد والعملية التقليدية^(٢) . أما النظر المطلق الى التقليد على أنه من نتاج البيئة أو التعليم فانه أمر لا نوافق عليه خصوصا اذا قيل : ان الطفل يصطنعه ؛ لأنه يجد فيه وسيلة ناجحة لتحقيق دوافعه^(٣) .

ولا يهمننا في هذا المقام أن تقدم الأدلة على فطرية الاستعداد للتقليد ، أو عدم فطريته ؛ ولكن يهمننا أن ندرسه على أنه عامل نفسى هام للحياة الجمعية وللتعلم . مثله في ذلك كمثل الاستعداد للاستهواء والاستعداد للمشاركة الوجدانية .

ونظرا للتداخل الشديد بين ظواهر المشاركة الوجدانية والاستهواء والتقليد ، ونظرا لأننا لا نجد في العادة احدى هذه الظواهر في صورتها النقية الخالصة ، فان الأمر قد اختلط على بعض الباحثين ، فأطلقوا اسم التقليد على كل هذه الظواهر . وأراد بعض الباحثين الآخرين أن يفرد لكل ظاهرة اسمها . والموقف يتضح اذا ذكرنا أن الحياة العقلية في أى

(١) وهذه الشروط الموجودة في الموقف يسميها المتأثرون بالمدرسة السلوكية - أمثال « Dollard » و « Miller » - الاشارات الخارجية . على ان « دولارد » و « ملر » يعلنان - عند قولهما : أن التقليد « ميكانيزم » يتعلمه الفرد - انهما متأثران بمدرسة السلوكيين تحت زعامة « بافلوف » و « واطسون » و « كلارك هل » ويعلنان كذلك أن محاولتهما هذه محاولة مبدئية ويصفانها بأنها جزئية ، وبأنها في حاجة الى الفحص والاختبار ؛ أى أنهما لا يؤمنان بأنها أصبحت نهائية . والمدرسة التى يتأثر بها هذان المؤلفان في تفسيراتهما للتقليد أصبح أهم أسسها في ذمة التاريخ . ويمكن مراجعة آرائهما في

Miller and Dollard : Social Learning and Imitation P. V. P. 76.

(2) Piaget : Play, Dreams and Imitation p. 5.

(٣) وأصحاب هذا الرأى لا يفرقون بين موقفين ، أحدهما موقف من يستندون الى مراجعهم من السلوكيين أو أنصاف السلوكيين أمثال « دولارد » و « ملر » ؛ والآخر موقف غيرهم ممن يتحدثون عن الدوافع الانسانية الشعورية . وهم يعضدون في مناسبات أخرى مواقف « الجشثالتيين » الذين لا يؤمنون بفكرة المثيرات البسيطة أو بفكرة ما يسمونه بالاشارات الخارجية . وليس من الممكن لواحد من طلاب علم النفس ان يقف من هذه المدارس المتطرفة هذا الموقف الا اذا ناقض نفسه . فعلى المشتغلين بعلم النفس ان يهضموا هذه الاتجاهات على نحو جديد متكامل ، أو عليهم ان يعلنوا لانفسهم التبعية لمدرسة دون الأخرى ؛ كما فعل « دولارد » و « ملر » في كتابهما الذى سبق ان أشرنا اليه .

لحظة توجد مركبة من عناصر تدخل دائما تحت ثلاثة أنواع ، كل نوع منها يقابل احدى الظواهر الثلاثة ؛ فالوجدان يقابل المشاركة الوجدانية ، والادراك يقابل الاستهواء ، والسلوك — أو الناحية التنفيذية للنزوع — يقابل التقليد . ويتضح الموقف أكثر من ذلك اذا تذكرنا أن الفصل الى وجدان وادراك ونزوع ، وكذلك الفصل الى مشاركة وجدانية ، واستهواء ، وتقليد أمور يتطلبها التحليل العلمى . وعلينا أن نذكر كذلك أن تسمية الموقف الواحد باسم واحد يقصد به الإشارة عادة الى العنصر الغالب ؛ فاذا قلنا : ان فلانا فى حالة انفعالية فاننا نقصد أن المظهر الاتفعالى هو الغالب على المظاهر الأخرى فى هذه الحالة . كذلك اذا قلنا : ان هذه حالة تقليد ، فاننا نعنى أن عنصر التقليد هو الغالب .

لنأخذ مثلا ما يحدث فى أثناء استماع جمع من الناس الى خطيب مشهور ، فان الجو يوحى بعظمة المتكلم ، وبهذا يستمع الناس ولديهم فكرة واحدة عن قدرة الخطيب ، وتجدهم يشعرون ازاءه بالاعجاب ، ويشتركون جميعا فى هذه الحالة الوجدانية التى تساعد بدورها على تقبل الأفكار ، والناس اذ يظهرون بمظهر الاحترام وحسن الاستماع ، ويعبرون — بالتصفيق ، ومختلف أساليب الاستحسان — عن اعجابهم ، يقاد بعضهم بعضا فى ذلك . والدليل على هذا أن كثيرا من المستمعين لا يصفق للخطيب الا بعد أن يرى غيره يصفق . ونجد أحيانا أن التصفيق يبدأ من شخص أو أكثر ، ثم ينتشر بسرعة البرق حتى يعم جميع الحاضرين . وقد يقول البعض : انه لا يمكن الفصل بين التصفيق « وهو سلوك خارجى » والاعجاب « وهو حالة وجدانية داخلية » ؛ ولكن اذا تذكرنا أن الاعجاب له تعبيرات مختلفة ، وأن التصفيق لا يخرج عن كونه واحدا منها ، واذا تذكرنا أن التصفيق يحدث أحيانا بدافع المجاملة أمكننا أن نرى ان التصفيق والاعجاب لا يكونان وحدة تجعلنا نعتبر انتشار التصفيق بين الجماهير مجرد مشاركة وجدانية . وبنفس الطريقة لا يمكننا أن نعتبر انتشار الضحك وانتشار البكاء وانتشار الهتاف مشاركة وجدانية صرفة .

من كل هذا نرى أن الظواهر النفسية الاجتماعية تختلط فيها النواحي الثلاث . وقد تبرز في بعض مواقفها ناحية دون الناحيتين الأخرين . فتقليد الناس بعضهم بعضا فيما يلبسون لا يخلو من انتقال الفكرة ، ومن انتقال التدوق والاعجاب . كذلك انتشار الأفكار عن طريق الدعاية لا يخلو من استغلال انتشار حالة وجدانية معينة ؛ كالخوف مثلا ، ولا يخلو من انتشار مظاهر الرعب والفرع . وبهذا تتوافر في الدعاية الناجحة ظواهر : التقليد والمشاركة الوجدانية ، الى جانب الاستهواء ؛ والظاهرة الأخيرة هي الأساسية فيها .

التقليد والدوافع الفطرية :

بالرغم من أن الكثيرين من علماء النفس — خصوصا الفرنسيين منهم — يميلون الى اعتبار التقليد « غريزة » من الغرائز ، الا اننا نميل الى الأخذ برأى « مكدوجل » الذي يعتبر التقليد استعدادا فطريا عام . ومع هذا ففى التقليد مجال للتعبير عن الدوافع الفطرية المختلفة . وأولى هذه « الدافع الفطرى للاجتماع » (١) . فنحن نتبع سلوكا يشبه سلوك مجموعة من الناس . حتى اذا اجتمعنا بهم شعرنا معهم بشعور الاطمئنان ، وقضينا على شعور الخوف الناشء من الوحدة . ونجد أحيانا في المواقف الداعية للتقليد مجالا متسعا لغريزتى السيطرة ، والخضوع . فالشخص الذى يقوم بتقليد شخص آخر يرى فيه تفوقا ، ويشعر بشيء من النقص ازاء ناحية التفوق ، لهذا ينزع الى كسب هذه الناحية حتى يصير متفوقا . وفي هذا النزوع لكسب التفوق ميل واضح الى السيطرة . ونجد أن الشخص المؤثر يشعر بالزهو اذا أدرك أن غيره يقلده ، وقد يخشى أن يتفوق عليه الشخص المتأثر فيبتكر

(١) يرى البعض أنه لا يوجد دافع فطرى للاجتماع ، ولكن اذا درسنا سلوك قطيع من الغنم ، أو الطيور ، أو الحشرات نشعر بالميل الشديد الى الاعتقاد بفطرية النزعة الاجتماعية .

ناحية جديدة ليتفوق بها . وبهذه الطريقة تحدث تغيرات دائمة بين الناس .
ويؤدى بعض هذه التغيرات الى تقدم فى عادات المجتمعات .

وتبدأ الابتكارات الجديدة « المودات » فى الطبقات الاجتماعية العليا ،
ثم نجدها تنتقل بالتدرج الى الطبقات التالية لها ، ثم الى التى تتلو هذه ،
وهكذا الى أن تصل الى الطبقات الاجتماعية الدنيا . ونجد فى نفس الوقت
أن الطبقات العليا تترك ما ابتكرته من « المودات » عندما تراها قد انتشرت
الى طبقات أقل منها ، فتنحلى عنها الى غيرها . وهذا التحلى عن « مودة »
معينة ينتشر انتشارا تدرجيا من الطبقات العليا الى التى تليها . ومن هذه
الى ما بعدها وهكذا . ولهذه الظاهرة ما يشبهها فى علم الطبيعة ؛ فنجد فى
علم الصوت مثلا أن موجة التضاضط تنتشر انتشارا تدرجيا من طبقة الى
التى تليها ، وتتبعها فى نفس الوقت موجة تخلخل تسير فى نفس الاتجاه .

شروط التقليد :

لكى يتم تقليد نوع من أنواع السلوك لا بد من توافر ناحيتين ،
احدهما : الرغبة فى التقليد ، وثانيتها : القدرة على تقليد السلوك المراد
تقليده (١) ونجد كثيرا من أنواع الحيوان يتعلم عن طريق التقليد ؛ فاليمامة
تعلم صغارها الطيران عن طريق التقليد . وبدهى أن اليمامة الصغيرة لولا
وجود استعداد طبيعى لديها للطيران لما تمكنت من أدائه . وقد حاول
الانسان من قرون عديدة أن يقلد الطير فى طيرانه فلم ينجح بالرغم من توافر
الرغبة . فكأن الرغبة ليست كافية لخلق المقدرة . ونجد أن الشعور بالمقدرة
يكون أحيانا من عوامل خلق الرغبة فى التقليد ؛ فالشعور بالمقدرة الموسيقية

(١) أما تحليل الشروط الى دوافع (Drife) واشارة (Cue) ورجع (Response) وجزاء (Reward) كما قام به « دولارد » و « ملر » فى كتابهما الذى سبقته الإشارة
اليه فانه تحليل ناقص لأنه يهمل المقدرة أو أثر النضج ، ويهمل الفكرة الكلية
مناثرا بفكرة السلوكيين . وهو يصرح بهذا علنا . راجع كتاب الدكتور
مصطفى فهمى : سيكولوجية التعلم .

كثيرا ما يدفع الناشئ لتقليد قادة الموسيقيين ، فيتقن تقليدهم . ونجد أن التقليد وحده غير كاف لخلق الاستعداد ؛ فاذا أراد شخص قليل الذكاء أن يقلد أعمال الأذكياء ، فإن محاولته لا تجعل منه شخصا ذكيا . واذا أراد شخص عادي أن يقلد شاعرا موهوبا ، أو كاتباً فذ الأسلوب ، فإنه يجد نفسه غير قادر على إنتاج يوازي ما ينتجه هؤلاء . ومثل هذا يحدث عند محاولة تقليد مهرة السباحين أو كبار العدائين .

ويقال أحيانا : ان غلاما معينا قد اكتسب الاستعدادات الاعتيادية والاجرامية من قراءة الروايات البوليسية ، ومشاهدة الأفلام السينمائية المثيرة ؛ ولكن هذا غير صحيح . فالذين يقرءون هذه الروايات ، ويشاهدون هذه الأفلام يعدون بالآلاف ، ولكن الذين يتأثرون بها قليلون ، وهؤلاء هم الذين توجد لديهم نزعات كامنة في هذا الاتجاه . وينحصر أثر الروايات والأفلام في استثارة هذه النزعات ، وفي تغذيتها بالأساليب والوسائل التي قد تظهر بفعل السينما أو بغيره .

التقليد المقصود وغير المقصود :

واذا كانت الرغبة في التقليد صريحة كان التقليد مقصودا، أما اذا كانت الرغبة غير صريحة أو لاشعورية كان التقليد غير مقصود ؛ فالطفل يقلد والديه في لهجة الحديث ، وفي طريقة المشي ، وفي كثير من العادات ، واللازمات دون أن يقصد الى ذلك . ويبدو الطفل كما لو كان يمتصها امتصاصا من والديه . كذلك نجد شخصا يعجب بشخص آخر ، ويضعه من نفسه موضع المثل الأعلى ، فيقلده — دون أن يقصد — في أسلوبه ، وفي نبرات صوته ، وعاداته الشخصية ، وغير ذلك . فقد كان « سعد زغلول » في خطبه وأحاديثه ينطق حرف القاف « ق » كفا « ك » فكنت تجد شباب الثورة المصرية في عهده ينطقون حرف القاف كفا تبعا لذلك ، وكان يتم لهم هذا دون تصنع أو قصد . من هذا نرى أن التقليد غير المقصود

لا يقتصر على حسنات السلوك ؛ بل قد يتعداها الى غيرها دون تمييز .
فالشخص المتأثر يتقمص - عن طريق لاشعورى - شخصية المؤثر كلها
أو أغلبها .

ومن أمثلة التقليد غير المقصود انتشار السلوك بين جماعات الناس ؛
فاذا صفق الناس نصفق معهم ، واذا بكى عدد من الأطفال فى جماعة بكى
الباقون ، واذا تشاب أفراد فى جماعة تشاب الآخرون . وهنا نجد أثر
الجماعة فى تيسير التقليد حتى يتم بطريقة تكاد تكون آلية . ولعل السر
فى انتشار أنواع السلوك بين الناس أنهم - فى أثناء اجتماعهم - يعملون فى
اتجاه واحد اذا لم يكن هناك ما يدفعهم لعمل العكس ؛ واذا لم تكن هناك
ضرورة لتكوين حكم مستقل . والانسان فى جماعة لا يحاول عادة أن يشذ
عنها حتى لا يتعرض لسخط الجماعة ؛ ولو أن فكرة سخط الجماعة
أو رضائها لا توجد اذ ذاك فى ذهن المقلد بشكل صريح . وتشارك جماعة
من الناس فى القيام بعمل معين - مهما كان تافها - لأن هذا الاشتراك
يترتب عليه شعور الفرد بأنه واحد ضمن الجماعة ؛ ويترتب عليه تبعاً لذلك
نوع من الاطمئنان يصحبه شعور بلذة أداء العمل ، وهذا الشعور ناتج
عن سهولة أدائه مع الجماعة . لذلك كانت التمرينات الرياضية الفردية ثقيلة
الأداء ؛ يملها صاحبها بعد فترة قصيرة ، ويجب عادة اذا أداها أن يتم له
ذلك فى مكان منعزل لا يراه فيه أحد ؛ بينما تجده يؤدي نفس الحركات
الرياضية فى يسر واستمتاع واستغراق اذا حدث ذلك مع جماعة من الناس
تشارك كلها فى نفس العمل . ونجد هذا يحدث فى الغناء ، وفى الرقص ،
وفى الصياح وفى التصفيق ، وفى التدخين ، وغير ذلك .

ونجد فى التقليد المقصود أن هناك نزعة لتركيز الانتباه فى العمل المراد
تقليده لا نجد مثيلاً لها فى التقليد غير المقصود . ومن أمثلة التقليد المقصود
تقليد الخط الحسن عند تعلم الخط ، وتقليد حركة معينة عند تعلم الحركات
الرياضية ، وعند تعلم الصغير للحركات اللازمة فى صناعة معينة ؛ كالنجارة

وما شابهها . وفي هذه الحالات نجد المتعلم يحاول ويخطئ ، ويكرر المحاولة ، ويتكرر منه وقوع الخطأ ، ونجده يخرج تشكيلات تقرب بالتدريج من النموذج الذى يعرض عليه ؛ ففى تعلم النطق يقلد الطفل نطق والديه ، وعندما يكبر يقلد فى دروس المطالعة - وفى غيرها - نطق مدرسيه ، و فى كل هذا يبدأ النطق فى صورته العامة شبيهاً بالنموذج ، وتأخذ هذه الصورة العامة - كلما ازدادت المحاولات وازداد التشجيع - فى الاقتراب من حيث التفاصيل ، ومن حيث العلاقات بينها من هذا النموذج وهذا الذى يحدث فى النطق وفى الكتابة يحدث مثله فى السباحة ، وفى كسب مختلف المهارات . ولهذا يحسن أن تكون النماذج المعروضة على الأطفال نماذج متقنة ثابتة فى أشكالها فى المرحلة الأولى على الأقل . ويخطئ الآباء عندما يحدثون أطفالهم بأسلوب الاطفال ، فيقبلون الراء لاما أو ياء ، ويختصرون الحروف من الكلمات الى غير ذلك ، والأجدر أن يكون الآباء والأمهات على جانب من الدقة فى وضوح نطقهم وتراكيبهم ، وأن يكونوا دقيقين فى كل ما يصدر منهم من سلوك ؛ حتى لا يرتبك الطفل عند تقليده لهم . ويتعلم الطفل أكثر ما يتعلم عن طريق تقليد الأمثلة ، وعن طريق الممارسة لهذه الأمثلة ، وعن طريق الاقتراب التدريجى منها بالمحاولة المتكررة .

ولكيلا يرتبك الطفل عند تعلمه الكتابة فى المراحل الأولى ، يحسن أن تلتزم الحروف شكلا واحدا ؛ فيحسن أن تتخذ كل من «الهاء» و «الكاف» و « العين » مثلا شكلا واحدا فى المرحلة الأولى . أما تنويع الكاف الى ثعبانية وغيرها فيجب تأجيله الى مرحلة متأخرة .

الغرض من التقليد :

سبق أن ذكرنا أن للتقليد عنصرين ؛ هما : الرغبة أو الدافع ، والقدرة أو الاستعداد . وهناك عنصر ثالث يلتقى غالبا مع هذين العنصرين . وهذا العنصر الثالث هو الغرض النهائى من التقليد .

فقد يكون التقليد بدافع تحقيق غاية خارجة عن موضوع التقليد نفسه
فإذا عرفت شخصا نجح في كسب مبلغ من المال بممارسة عمل أو صناعة
معينة، وكنت لا أميل الى هذا الشخص أو الى العمل الذي يقوم به، ولكنني
أميل الى كسب مبلغ من المال مثله، فأننى قد أقلد الشخص؛ بل قد أقلده
في العمل الذي مارسه بقصد الوصول الى نفس النتيجة. نلاحظ هنا أن
الغاية النهائية من التقليد لا تقع في الشخص المؤثر ولا في سلوكه؛ وإنما
تقع في نتيجة هذا كله. فالكسب هو الغاية، وهو موضوع الميل. أما
تفاصيل السلوك، والشخص الذي يصدر عنه السلوك، فانهما أمران
لا يشتاقان المتأثر الى تقليدهما؛ لولا الغاية النهائية الخارجة عن موضوع
التقليد نفسه.

وقد يكون الدافع للتقليد هو الإعجاب بالشخص نفسه؛ فيحدث
أحيانا أن يصل الإعجاب والحب والتقدير الى درجة تجعل المتأثر ينقمص
شخصية المؤثر، فيقلده في كل شيء حسنا كان أو قبيحا، ونجده يفعل
ذلك دون أن يشعر شعورا صريحا بما يفعل. وعندما يقلد الأبناء آبائهم،
أو التلاميذ مدرسيهم، أو المراهقون أبطالهم يفعلون ذلك كما لو كانوا
يمتصون حركاتهم وعاداتهم دون تمييز. والصلة بين الفرد والجماعة —
عندما يقلد الفرد أعمال الجماعة التي ينتمى إليها، أو التي يتوق الى أن
ينتمى إليها — تشبه الى حد بعيد الصلة بين الابن وأبيه، وبين
التلميذ ومدرسه. ويسلك المتأثر في كلتا الحالتين كما لو كان للمؤثر
سلطان عليه لا يقوى على مقاومة تأثيره؛ ففي إحدى الحالتين نجد سلطان
الوالد والمدرس، وفي الأخرى نجد سلطان الجماعة. ويبرز أثر السلطان
الفردى في مرحلة التعليم الابتدائي وما قبلها، كما يبرز أثر السلطان الجمعى
في مرحلة التعليم الثانوى ومن المهم أن نذكر وجوب ثبوت الدستور الذى
تتبعه السلطات الفردية، ووجوب ثبوت تقاليد طيبة في المدارس

الثانوية . ومثل هذه التقاليد هي التي أكسبت مدارس «ايتون» و «هارو» و « رجبى » صيتها الكبير .

ويحدث أحيانا أن يعجب الشخص بالسلوك نفسه . فقد يرى الواحد منا « بهلوانا » يعجب بحركاته ، ولا يبغى أن يكون « بهلوانا » مثله ، ومع ذلك قد يصل اعجابه بالحركات الى حد الرغبة فى تقليدها ، ويكون القصد من التقليد عادة الرغبة فى فهم طريقة القيام بهذه الحركات ، فالفهم الصحيح لا يأتى الا عن طريق الممارسة الفعلية .

فكأن الغاية من التقليد تقع فى السلوك نفسه ، أو فى المؤثر الذى يصدر عنه السلوك ، سواء كان هذا المؤثر فردا أم جماعة . وقد لا تكون للغاية من التقليد صلة مباشرة بالسلوك أو بالمؤثر ، وانما تتصل بنتيجة هذا السلوك كالفهم ، أو النجاح فى الامتحان ، أو غير ذلك . ويلاحظ أن التقليد يكون مقصودا ، ويتطلب انتباها صريحا واضحا فى الحالات التى تكون الغاية فيها واقعة فى السلوك أو خارجة عن كل من السلوك والشخص ، أما اذا كانت الغاية هى التشبه بالشخص ، أو الاندماج فى الجماعة فان التقليد يكون غير مقصود ، ويتم عادة بطريقة لاشعورية .

أنواع التقليد :

يمكن أن يقسم التقليد الى أنواع ثلاثة : التقليد الفردى ، والتقليد الجمعى المؤقت ، والتقليد الجمعى الدائم ، أما التقليد الفردى فهو الذى يتم بين فرد وآخر . فتقليد الولد لأبيه ، وتقليد التلميذ لمدرسه ، وتقليد المراهق لزعيم من الزعماء ، كل هذا وأمثاله يدخل تحت نوع التقليد الفردى . أما اذا وجد الفرد ضمن جماعة ، فصنف معهم ، أو ضحك لضحكهم ، أو بكى لبكائهم . فان هذا يحدث لأن الفرد موجود ضمن جماعة ، ولولا هذا لقل احتمال حدوث التصفيق ، أو الضحك ، أو البكاء ، فالفرد يصنف للخطيب اذا كان يسمع له ضمن جماعة ، أما اذا كان يستمع بمفرده لنفس

الخطيب بوساطة المذيع فانه لا يحتمل أن يصفق ، كذلك يلاحظ أن النكتة التي تثير ضحكا عاليا - اذا قيلت لجمهور من الناس - قد لا تثير الضحك اذا قيلت لشخص بمفرده. وواضح أن وجود الشخص ضمن جماعة من عوامل زيادة أثر الاستعداد للتقليد . وقد سبق أن تحدثنا عن مثل هذا في القابلية للاستهواء ، والمشاركة الوجدانية . وهناك نوع من التقليد الجمعي تجده ثابتا الى حد كبير بين الجماعات الثابتة ؛ كالأمم ، والطوائف ؛ حيث نجد أنواعا ثابتة من السلوك يمارسها أفراد الجماعة ، وهذه ما نسميها بالتقاليد. ومن هذه تقاليد المواسم والأعياد ، ومراسيم الزواج ، والطلاق ، وغير ذلك . ويلاحظ أن انسجام الفرد في المجموع يقاس عادة بمقدار احترامه لهذه التقاليد ، وممارسته اياها . ويترتب عادة على انسجام الفرد على هذه الصورة ، شعور بالطمأنينة يشنتقه من شعوره بأنه واحد ضمن جماعة .

يتضح لنا من هذا التقسيم أن التقليد اما فردي ، واما جمعي . والتقليد الجمعي اما مؤقت ، واما دائم . وتدخل « المودات » التي سبق أن تحدثنا عنها تحت التقليد الجمعي المؤقت .

وهناك تقسيم آخر لأنواع التقليد ؛ فهو اما حسي ، واما تصوري . ففي التقليد الحسي يدرك الفرد نماذجه ادراكا حسيا ، ويقلدها مسترشدا بهذه الادراكات الحسية . فالتلميذ الذي يتعلم تحسين الخط - فيتأمل النماذج ويقلدها أو يتأمل حركات مدرسه ويقوم بمثلها - يقلد تقليدا حسيا ، وكذلك يفعل من يتعلم الحركات الرياضية ، وأنواع المهارة الصناعية ، وما الى ذلك . أما التقليد التصوري فان الفرد يدرك النموذج ادراكا حسيا ، ويحاول أن يحتفظ بصورته (في ذهنه) ، ثم يحاول مسترشدا بهذه الصورة الذهنية أن يقلد النموذج . فنجد أحيانا شخصا محترما يرى حركة تصدر من « بهلوان » ، ويخجل من تقليد هذه الحركة أمام الناس ، فيبذل جهده في الاحتفاظ الذهني بصورة هذه الحركة، حتى اذا

خلا الى نفسه حاول استرجاع الصورة ، واسترشد بها في تقليد الحركة .
ومثل هذا يحدث في كثير من حالات التعلم ؛ كتعلم الحركات الرياضية ،
وتعلم الموسيقى ، والغناء ، وما الى ذلك .

وهناك تقسيم ثالث لأنواع التقليد سبق أن تحدثنا عنه تفصيلا . وبناء
على هذا التقسيم يقع التقليد في نوعين : المقصود ، وغير المقصود .

وليس معنى ما تقدم أن أنواع التقليد في كل من هذه التقسيمات
الثلاثة يوجد كل منها على هذه الصورة النقية البسيطة ؛ فاننا نجد أن
التقليد المقصود يكون حسيا ، أو تصوريا ، ويكون في الوقت نفسه فرديا ،
أو جماعيا . وكذلك التقليد التصوري يكون مقصودا ، أو غير مقصود .
ونجد على غرار هذا تشكيلات متعددة لأنواع التقليد . غير أن الأسس
الثلاثة التي اتخذناها لتقسيم التقليد تفيدنا في تحليل ما نلاحظه عن التقليد
في الحياة الواقعية (١) .

التقليد والتربية :

سبق أن قلنا : ان التقليد من خصائص الكائنات الحية الراقية ، وأنه
ضروري لترقى الانسان . ففي المراحل الأولى يقوم بتعلم المشى والكلام ،
وتعلم كثير من العادات على أساس التقليد . ويستمر التقليد أساسا للتعلم
سنوات عديدة . ويعتبر الطفل مرضيا عنه من والديه ومربيه اذا اكتسب
أكبر قدر ممكن من عاداتهم وخصالهم عن طريق تقليدهم ، والتشبه بهم .

(١) ويقسم البعض التقليد الى أنواع ثلاثة - أو مستويات ثلاثة - متأثرين
في ذلك بالاستاذين « ملر » و « دولارد » فيقولون : هناك التقليد البسيط ،
وهناك تقليد يعتمد على القياس . وهناك نقل ، أو نسخ . وتنص قواعد
المنطق أن يكون التقسيم على أساس واحد وأن يكون الأساس واضحا ؛ فلا يجوز
أن نقول : ينقسم الناس الى قصار ، وسود ، وسمان . كذلك اذا أخذنا تقسيمات
التقليد الواردة هنا - دون الرجوع الى أصلها - فاننا نجدتها تتبع تقسيما
متداخلا ، لا يجوز الأخذ به اطلاقا : راجع كتاب الدكتور مصطفى فهمي
« سيكولوجية التعلم » .

والطفل الذى ينشأ فى البيوت والمدارس ذات التقاليد الراسخة يسهل عليه كسبها . ونجد هذا فى الأجواء ذات التقاليد الاجتماعية ، أو الدينية ، أو غير ذلك .

وإذا نظرنا الى التربية فى العصور الأولى نجدها قامت على التقليد ، فالأطفال يتعلمون الحرف من آبائهم عن طريق ملازمتهم وتأمل حركاتهم ، ولذا نجد أن حرفة معينة تنتقل من فرد الى آخر فى الأسرة الواحدة ، ونجدها تنتقل فى نفس الأسرة من جيل الى جيل ، وما زلنا نجد أسرا يقوم أفرادها بصناعة الساعات ؛ ويمكن تفسير هذا على أساس الاستعداد والتقليد .

وكنا الى عهد قريب نجد صناعة معينة فى جهة ما تنفرد بها أسرة معينة ، ونجد أن أساليب الزراعة عند الفلاح المصرى ظلت تنتقل عن طريق التقليد من جيل الى جيل ، ويرجع عهد الكثير منها الى أقدم العصور التاريخية فى مصر . وهذا الذى نجده فى التعليم المهنى فى العصور الماضية نجد مثله فى التعليم النظرى ؛ فقد كان تعليم القراءة والكتابة ، وتعليم كثير من العلوم يقوم على التكرار والحفظ والتقليد ، ويقوم كذلك على أساس الاحتفاظ بتراث الماضى ، ومجرد نقله من جيل الى جيل . وكان العالم فى نظر الناس الى عهد ليس بعيد هو أكثرهم حفظا لما ورد عن العلماء السابقين ، وسار بين الناس المثل القائل : « ليس فى الامكان أبدع مما كان » . وبهذا حدث نوع من الركود ذهنى ما زلنا نعانى بعض آثاره .

على أننا لا ننادى بالاستغناء عن الماضى ، ومكتشفاته ، ومخلفاته . ولا ننادى بالاستغناء عن التقليد ؛ اذ لا يمكن الاستغناء عنه ؛ فالتقليد — كما قلنا — ضرورى فى كثير من نواحي التربية الدينية ، والخلقية ، والاجتماعية ، والجمالية ، وفى كثير من نواحي كسب المهارات ، وتعلم الحرف . والتقليد ضرورى لكسب الأساسيات فى كثير من النواحي الحركية واللغوية . ولا يجوز مع هذا أن تتجه الى صب التلاميذ فى قوالب جامدة ؛

وانما الواجب أن نكسبهم - عن طريق التقليد - مختلف العادات الصالحة ، وأن نهيبهم لهم مجالاً للابتكار ، والتفكير ، والتعبير الحر عن الاستعدادات الذاتية الفردية . ومعنى هذا أننا ننتقى للتلميذ من تراث الماضي ما يعينه على كسب أساسيات يمكنه أن يبنى عليها بعد ذلك بناء ناتجا من تفكيره ، واستعماله لذكائه ، واستعداداته الخاصة به . إذ حدث هذا فاننا نجد في الأمة قدرا مشتركا من الثقافة ، ونجد كذلك شخصية مستقلة لكل فرد . ومع استقلال هذه الشخصيات نجد في القدر المشترك ما يجعل منها مجموعة متناسقة في كثير من النواحي .

ويلاحظ أن النواحي التي يراعى فيها أن تقوم على التقليد، هي النواحي التي يراد تعودها ، والتي لا يسهل مناقشة الأسس التي قامت عليها . ونرى أن التربية الدينية لا يمكن أن تتم في المدارس على أساس الاقتصار على دروس الدين ؛ وانما يجب أن يكون بالمدرسة مكان تمارس فيه بالفعل فروض الصلاة ، وأن يكون المدرسون أنفسهم مواظبين في هذا المكان على أداء هذه الفروض . وهذا الذي يقال في التربية الدينية يقال مثله في التربية الجمالية ، والتربية الاجتماعية ، وتكوين آداب السلوك .

وواضح مما تقدم أن المدرس عليه أن يبدأ بتربية نفسه ؛ فيخلص قدر الامكان من كل العادات التي يريد الا تنتقل الى تلاميذه ، وأن يكون في نفسه من العادات ما يراه جديرا بالاقتناس والتقليد . وعلى المدرس كذلك ألا يطبع تلاميذه على غراره ، وانما يعتبر نفسه مرشدا يهيبهم لهم الجو الذي تنمو فيه الفردية نموا متزنا . ويشيع في هذا الجو نظام المناقشة ، والحكم الذاتي ، والتعبير الحر ، واحترام شخصيات التلاميذ مع عدم الخروج على التقاليد المدرسية الطيبة .

المراجع

1. Mc Dougall : Social Psychology Ch. IV.
2. Stout : Manual of Psychology Bk. III Ch. III.
3. Stout : Groundwork of Psychology Ch. III.
4. Valentine, C. W. : Psychology of Early Childhood.
5. Piaget : Play Dreams and Imitation.
6. Miller : Social Learning and Imitation.

obeykandi.com

الفصل الثاني عشر

اللعب

مقدمة :

نعالج في هذا البحث ظاهرة اللعب . وتنتمي هذه الظاهرة — كما يبدو — لاستعداد طبيعي أو فطري . فالطفل بطبيعته ومنذ صغره ميل الى اللعب . وهذا الميل الى اللعب عام عند جميع أفراد الانسان . وهو فوق ذلك يشاهد عند صغار الحيوانات الراقية ؛ كالقطط ، والكلاب ، والقرود . وغير ذلك .

والذين لا يؤمنون — أو الذين لا يريدون ان يؤمنوا — بهذا الرأي ربما يقولون : ان اللعب من نتاج البيئة ، وان الفرد انما يتعلم كيف يلعب والرد على هذا أن من الضروري أن نميز بين الاستعداد للعب واللعب نفسه . ولا بد ان نذكر أن اللعب — ككل استعداد فطري — يتعدل بفعل البيئة تعدلا يموه فطريته على الكثيرين . وعلينا أن نشير كذلك الى وجوب الافادة من التأمل في الشبه العظيم بين لعب الأطفال في مختلف الأزمنة والأمكنة ، والى التطابق بين التشكيلات السلوكية للعب عند جميع أفراد جنس من أجناس الحيوان .

يمكننا أن نقول : ان الانسان يميل الى اللعب بطبيعته دون أن نطيل في التدليل على فطرية اللعب . ومع كل هذا فاننا سنعالج موضوع اللعب بغض النظر عن الخلاف على كونه فطريا أو غير فطري .

اللعب والعمل الجدى :

لعل أول ما يستثير البحث في موضوع اللعب هو ما يميز اللعب عن غيره من أنواع النشاط ؛ فنحن جميعا نشعر بأن هناك فوارق بين ما يمكن أن نسميه لعبا وما يمكن أن نسميه عملا جديا. ويتعذر علينا الفصل في بعض الأحيان. ولتوضيح الفكرة نأخذ الأمثلة الآتية: الطفل الذى يجرى، ويرقص ، وينط ، ويلقى الكرة لزميله لا يمكن أن يقال الا أنه يلعب ؛ اما التلميذ الذى يجلس ليستذكر دروسه ساعات طويلة ؛ لكى ينجح فى الامتحان فلا يمكن أن يقال : انه يلعب ، فهو يعمل عملا يتصف بالجدية بكامل معناها . كذلك الرجل الذى يلعب الكرة أو « الطاولة » فانه يلعب ؛ أما الرجل الذى يحمل الأحجار ليكسب عيشه فانه يعمل عملا جديا لا يتصف بصفة اللعب . وهناك أعمال تبدو وسطا ؛ فلعب الشطرنج يختلف عن لعب « الطاولة » مثلا اختلافا واضحا . « فالطاولة » أقرب الى أن تكون لعبا من الشطرنج . كذلك عمال البناء قد يحملون الأثقال من مكان الى مكان ، ويقومون فى أثناء هذا بغناء جماعى يجعل عملهم الجدى ممتزجا بعض الشيء بروح المرح الذى يسود اللعب . والتلميذ الذى يقرأ رواية ، ويستمتع بقراءتها ، ويؤدى فيها امتحانا ، يختلف عن التلميذ الذى يقرأ نفس الرواية كارها مكرها ليؤدى فيها نفس الامتحان ، ووجه الاختلاف أن العمل الجدى فى الحالة الأولى ، ممتزج بشيء من روح التسلية التى نجدها عادة فى اللعب . واذا أخذنا اللعب من ناحية ، والعمل الجدى من ناحية أخرى ، وجدنا أن العمل الجدى يرمى الى تحقيق غرض خارج عن العمل نفسه ، وأما اللعب فان الغرض منه فى ذهن الكائن الحى هو اللعب نفسه . فالطفل يلعب لأنه يريد أن يلعب ، وأما التلميذ فانه يذاكر لأنه يريد أن ينجح ؛ لا لأنه يريد أن يذاكر . كذلك الرجل الذى يلعب الطاولة ، فانه يفعل ذلك عادة بقصد اللعب . وأما الرجل الذى يحمل الأحجار فانه يفعل ذلك لغرض خارج عن النشاط الذى يؤديه ؛ وهذا

الغرض هو كسب العيش . ونجد أحيانا أن اللعب قد يكون لأغراض خارجة عنه ، كلعب المحترف ، ولعب من لا يقصد الا الى غلبة من يلاعبه . وكذلك نجد أن العمل الجدى يتصف أحيانا بروح المرح والتسلية التى نجدها فى اللعب ، وبذلك يكون بعضه مقصودا لذاته ولا يقتصر على غرض خارج عنه . نرى من هذا أنه لا توجد فى الواقع حدود فاصلة بين بعض أنواع النشاط التى تسمى لعبا ، وبعض أنواع النشاط التى تسمى عملا جديا . اذ نجد أن الغرض يكون فى كثير من الأحيان موزعا بين النشاط نفسه ونتيجته . فاذا تركز الغرض فى النتيجة وانمحي من النشاط نفسه أصبح العمل مملا فى ذاته ، وأصبح جديا بكل معنى الكلمة . أما اذا تركز الغرض فى النشاط نفسه ، وانمحي من الغاية الخارجة عنه ، فان النشاط يصبح لعبا . والغرض الذى يقصد اليه الفرد فى أثناء قيامه بالنشاط، يرتبط بالحالة النفسية التى تصحب هذا النشاط .

ويمكننا أن نوازن بين اللعب والعمل الجدى من ناحية أخرى ، وهى ناحية التنظيم . فاللعب فى صورته الخالصة يميل الى الحرية والانطلاق ، وأما العمل الجدى فى صورته الخالصة فانه يميل الى التنظيم والتزام قواعد معينة . لهذا كان لعب الشطرنج اذا قورن بلعب الطاولة أقرب الى أن يكون عملا جديا منه الى أن يكون لعبا، وذلك لكثرة قواعده وصرامة القوانين التى يجب اتباعها فيه . ونجد أحيانا مجموعة من الغلمان يلعبون الكرة ضد مجموعة أخرى فى غير نظام ، ونجدهم مستمتعين بهذا أشد الاستمتاع ، فاذا حددت لكل منهم موضعا معينيا يكاد يكون ثابتا ، ووظيفة معينة عليه أن يؤديها ، فان النشاط يبدأ يفقد جانبا كبيرا من صفة اللعب . ونرى أحيانا مجموعة من الأولاد يلعبون لعبا ايهاميا يتخيلون أنفسهم فيه مدرسين وتلاميذ ، وينتخبون من بينهم ناظرا ، ونجد أن التنظيم فى هذه الحالة ليس بالدقة التى نجدها بها فى حالة مدرسة حقيقية . ففى الحالة الأولى

سرعان ما يصبح المدرس تلميذا والتلميذ مدرسا أو ناظر المدرسة ، وقد نجد الناظر متساهلا في غالب الأحيان في القيام بدوره . نلاحظ أن النشاط في حالة اللعب نشاط حر تلقائي ، وأما في حالة العمل الجدى فأننا نجده مقيدا توجهه النظم المفروضة من الخارج . وبهذا يكون اللعب نشاطا تلقائيا حرا ممتعا ، ويكون معبرا عن الحالة النفسية الداخلية تعبيرا صادقا . فنجد في اللعب مطابقة بين الحالة النفسية والنشاط الظاهري . أما التعبيرات التي تصدر من التلاميذ في أثناء الحياة المدرسية الرتيبة ، والتي تؤخذ للدلالة على الطاعة ، فإنها قد لا تكون معبرة تعبيرا صادقا عن الشعور النفسى الداخلى . وأما تعبيرات الطاعة لقوانين اللعب فإنها تطابق ما يشعر به اللاعب وبهذا نجد أن نشاط اللعب تعبير نفسى صادق ، ونجد أن دراسة نفسيات الأطفال تنجح إذا أجريت في ميادين اللعب أو في ميادين النشاط الذى يتصف بصفات اللعب . ففي ميادين التعبير الحر كالرسم والكتابة الحرة والتمثيل والغناء والهوايات والألعاب وما شابه ، نجد فرصا مواتية لدراسة نفسيات الأطفال . أما في الحياة الجدية فان الفرد لا يبدو عادة على طبيعته ليس معنى هذا أن العمل الجدى يهمل في الحكم على الشخص ، وإنما يؤخذ بشيء من الحيطة ، ويكمل بدراسات في ميادين التعبير الطليق الحر .

نرى من كل ما تقدم أن اللعب تعبير نفسى تلقائى حر ممتع مقصود لذاته (١) .

تفسير اللعب :

لقت موضوع اللعب أنظار الباحثين في مختلف العصور ، فتأملوا لعب الحيوان ولعب الانسان ، وحاولوا أن يصلوا الى ما قد يكون للعب من

وفي نظرنا ان اللعب ، والفن ، واحلام اليقظة ، واحلام النوم ، والاستمتاع بالقصة كلها من طبيعة واحدة من حيث التعبير النفسى الصادق .

فوائد ، وأن يفسروا الأغراض التي يمكن أن يؤدي إليها ، ووضعوا نظريات عدة نجد في كل منها جانبا من الصواب ، ولكننا نجد أن جانب الصواب يزيد في بعضها على البعض الآخر ، وتبعاً لهذا صمدت بعض هذه النظريات ، وضعفت أهمية بعضها الآخر ، وسنحاول أن نشرح كلا من هذه النظريات ، وأن نبين ما لها وما عليها .

اللعب والدوافع الفطرية :

نظراً لأن اللعب استعداد فطري لدى الانسان والحيوان الراقى ، فإن بعض علماء النفس اتجهوا الى اعتباره «غريزة». ومن بين هؤلاء «ثورنديك»، غير أن «ثورنديك» لا يتحدث عن الغريزة بقدر ما يتحدث عن السلوك الغريزي ، وإذا لاحظنا الحمل الصغير وهو يلعب مع حمل آخر يناطحه برفق ، وجدنا أن الموقف ليس مما يثير سلوك المقاتلة ، ووجدنا أن سلوك الحمل لا يرمى الى تحقيق الاعتداء والايذاء بالحمل الآخر . ولهذا نجد أن تناطح الحملان في حالة اللعب لا يستوفي شروط السلوك الغريزي في نواحيه الادراكية والنزوعية . ونجد كذلك أن انفعال الغضب المصاحب لسلوك المقاتلة ليس موجوداً في حالة اللعب . وبهذا لا نجد العنصر الانفعالي في تناطح الحملان . وانما نجد حركات تلقائية تدل على الاستمتاع ، وتدل على أنها مقصودة لذاتها . ومن ثم لا يمكننا اعتبار اللعب «غريزة» بالمعنى الذي يقصده أصحاب نظرية الغرائز . وتبدو حجتنا أقوى في لعب الانسان حيث نجد النشاط منوعاً ، بخلاف النشاط الغريزي فاننا نجده أميل الى التحديد . ونجد أن الانفعال الغالب في حالات اللعب هو انفعال السرور . أما اذا ظهر انفعال مخصص حاد كأنفعال الغضب أو الخوف فانه غالباً ما يفسد جو اللعب . ويمكننا أن نعتبر اللعب مسرحاً تظهر عليه تعبيرات الدوافع الفطرية وغير الفطرية المختلفة . أما اعتباره «غريزة» بالمعنى المحدد فهذا ما لا نوافق عليه .

نظرية الطاقة الزائدة :

ومن بين النظريات التي ظهرت في أواخر القرن الماضي ، نظرية تنسب الى «سبنسر» و«شلمر» مؤداها أن وظيفة اللعب هي التخلص من الطاقة الزائدة، بمعنى ان الحيوان اذا توفرت لديه طاقة تزيد على ما يحتاجه منها للعمل الجدى ، فانه يستعمل هذه الطاقة فى اللعب . واللعب بناء على هذا الرأى ليس الا وسيلة للتخلص من هذه الطاقة الزائدة . ومن الأدلة التي يسوقها أصحاب هذا الرأى أن الأطفال يلعبون أكثر من الكبار ، لأن الأطفال يجدون من يرعاهم ويغذيهم ، فلديهم طاقة زائدة يصرفونها فى اللعب . ولكن لاحظ أن الكبار يميلون للعب ، وأن اللعب ليس قاصرا على من يستمتعون بالراحة وانما يقوم به المتعبون أحيانا ، اذ يجدون فيه سبيلا الى الشعور بالراحة . كما أنه ليس من المعقول أن تهيب الطبيعة الكائنات الحية باستعدادات من شأنها مجرد التخلص من طاقة يسكن أن تكون ذات فائدة للكائن الحى . ولا يعقل أن تكون الطبيعة عابثة الى هذا الحد . فلا بد للعب من وظيفة حيوية لصالح الكائن الحى الذى يلعب . وتنقلنا هذه الاعتراضات الى النظرية التالية .

النظرية الاعدادية :

وصاحب هذه النظرية هو « كارل جروس » ، وقد نشرها فى كتابه اللذين ظهرا فى أواخر القرن الماضي . ويرى أن اللعب له وظيفة «بيولوجية» هامة للكائن الحى . فاللعب فى نظره اعداد للعمل الجدى الذى يقوم به الكائن الحى فى المستقبل . ومن أدلته على ذلك أن صغار الحملان تتناطح فى لعبها ، وبذلك تقوم بالتمرن على العمل الذى تقوم به فى المستقبل بصورة جدية . كذلك نجد القطط يطارد بعضها بعضا فى أثناء اللعب ، وتقوم بحركات تشبه تلك التى تقوم بها فى المستقبل فى اصطيد الفريسة اصطيدا جديا . ونجد مثل هذا فى لعب الكلاب وسائر الحيوانات الراقية . فالحيوان عندما يلعب

متناتحا أو صائدا ، ثم يكبر فيقوم بالتناطح والصيد بصورة جدية مثله كمثل فرقة التمثيل التي تقوم بالتمرن على الأدوار بصورة شبيهة بما تقوم به بعد ذلك . والذي يحدث عادة هو أننا لا نجد حركات الممثلين وأعمالهم في أثناء التمرين مطابقة تمام المطابقة لها في أثناء التمثيل الجدى ، ففي التمثيل الجدى نجد العناية والاتقان واليقظة ، وهذه لا نجدها في التمرين ، وإن وجدناها فإنها تكون بنسب صغيرة ، كذلك نجد أن الكلاب التي تتشاجر تشاجرا جديا تقوم بحركاتها في يقظة واتقان ، ويكون الحيوان إذ ذاك مشدودا متوتر العضلات . وهذه المظاهر نجدها بنسب قليلة في الكلاب عندما تتشاجر بصورة غير جدية في حالات اللعب .

ومن الأدلة على صحة هذه النظرية أن اللعب يأخذ شكلا خاصا عند كل نوع من أنواع الحيوان . فالشكل الذي يتخذه لعب القط يختلف عن الشكل الذي يتخذه لعب الحمل أو الكلب ؛ فلو أن اللعب مجرد تخلص من الطاقة الزائدة ، لخرجت حركاته في صورة عشوائية ، ولما كان هناك ما يدعو لاتخاذ حركات اللعب أشكالا خاصة تختلف من كائن حي لآخر .

واستند « جروس » الى دليل آخر ؛ هو أن اللعب من خصائص الحيوان الراقى . فمن المعلوم أن الكائنات الحية غير الراقية كالحشرات والزواحف مثلا لا تلعب . أما الحيوانات الراقية كالقطط والكلاب والفردة فإنها تلعب . ومعروف كذلك أن الفترة التي يكثُر فيها اللعب هي فترة الطفولة ، ومعروف أن الطفولة هي المرحلة التي تمر فيها بعض الكائنات الحية قبل أن تتمكن من بلوغ المستوى الذي تؤدي فيه وظائفها الحيوية بصورة كاملة . ونلاحظ أن مدة الطفولة عند الكائن الحي تطول كلما ارتفعنا في سلم التطور . فالكائنات الحية الدنيئة تولد بالغة مكتملة النمو تقريبا ، ونلاحظ أيضا أنها تولد قادرة على العيش مستقلة عن كبارها . ومعنى هذه المقدرة أن قوالب السلوك تكون لديها جامدة مكتملة النمو ؛ فهي

تبحث عن غذائها وتتوالد وتتكاثر في زمن وجيز . وما دامت قادرة على أداء وظائفها البيولوجية بعد ولادتها ، مباشرة ، فلا حاجة بها لفترة نضج فيها قوالب السلوك. أما الحيوان الراقى فانه يولد على جانب كبير من الضعف والمرونة والاعتماد على كباره الى أن ينضج . ويحتاج في هذه الفترة السابقة للنضج الى بعض التمرن على قوالب السلوك التي تفيده عند نضجه . ويحدث هذا التمرن عادة عن طريق اللعب . فاللعب في نظر «جروس» هو أسلوب الطبيعة للتمرن على العمل الجدى الذى يتطلبه مستقبل الكائن الحى . وقد ذكرنا فيما سبق - فى الفرق بين الاستعدادات الفطرية عند الحيوان الراقى بوجه عام والانسان بوجه خاص ، وبينها عند الحيوان غير الراقى - أن قوالب السلوك عند الحيوان غير الراقى جامدة قليلة المرونة وبعبارة أخرى مكتملة النمو . أما قوالب السلوك فى الحيوان الراقى فانها قليلة التحدد شديدة المرونة ، وتحتاج الى فترة قبل أن تتمكن من اتخاذ شكل محدد يساعدها على أداء وظيفتها بصورة كاملة . فالقط الصغير مثلاً لا يمكنه أن يصيد فأراً ، ولكنه يلعب كما لو كان يمثل دور الصائد . وقد وصف بعض المربين اللعب بأنه أسلوب الطبيعة للتعلم ، وقد لخص « رس (١) » ما تقدم فى العبارة الآتية « الحاجة الى التعلم تنشأ عن العجز عند الميلاد ، وامكانيته تنشأ عن مرونة « الغرائز » ، ووقته هو الفترة التى قبل النضج وطريقته هى « اللعب » .

وقد نجد بعض الصعوبة فى تطبيق هذه النظرية على لعب الانسان، ذلك لأن لعب الطفل متنوع الى درجة كبيرة . فالطفل يجرى، ويتسلق، ويتزحلق ، ويتناول الأشياء ، ويقذفها ، ويعضاها ، ويلعب ألعاباً فردية وجمعية مختلفة الأنواع . ولكن اذا تذكرنا أن حياة الانسان متنوعة تذكرنا كذلك أن الاعداد لها لا بد أن يكون على صور متنوعة . ومع هذا فاننا نجد الأطفال

في مختلف الأزمنة ومختلف الأمكنة تتشابه ألعابهم الى حد بعيد ، فاللعب
بالكرة ، ولعبة الاستخفاء^(١) ، ولعب البلى ، والحجلة ، ونط الحبل ؛ كل
هذه تكاد توجد بصورة واحدة في مختلف البلاد ، وهي قائمة معروفة من
زمن بعيد .

والوظيفة التي يؤديها لعب الأطفال ، أنه يكسب الطفل مهارة جسدية
مختلفة. فبالقفز، والجري، والتسلق ، والتزحلق ، والتسابق، واصابة الهدف ؛
وما يشبه ذلك يكتسب الطفل قدرات حركية على جانب كبير من الأهمية
وكذلك نجد أن اللعب بالماء والرمل والطين والأدوات والآلات — الحادة منها
وغير الحادة — يمكن الطفل من اكتساب معرفة دقيقة بخصائص الأشياء التي
تحيط به . وبهذا لا يقتصر اللعب في فائدته على كسب المهارة الحركية ،
وانما يمتد الى كسب القدرة على فهم العالم المادى . وفي اللعب الجمعى
يكسب الطفل القدرة على التعامل مع زملائه ، ويتعلم الأخذ والعطاء ،
ويكتسب القدرة على فهمهم وعلى فهم نفسه . ونجد فوق ذلك أن اللعب
يعطى فرصة طيبة لشعور الطفل بمقدرته . فباللعب يعرف الطفل قدرته على
لمس الأشياء الحارة والباردة ، وعلى حمل الأشياء الثقيلة والخفيفة ، وعلى
تحريك الأشياء الساكنة ، وايقاف الأشياء المتحركة ، وعلى النجاح في
التعامل مع بعض الرفاق دون البعض الآخر وغير ذلك . وخلاصة هذا أن
لعب الانسان يؤدي الى كسب المهارة ، وكسب الفهم ، وكسب الشعور
بالقدرة . وهذه النواحي الثلاث هي أسس النمو الصحيح . ومن هذا نرى
أن نظرية « كارل جروس » تنطبق على الانسان كما تنطبق على الحيوان ،
اذا تذكرنا أن حياة الانسان غنية بعناصرها وتفاعلاتها وحاجاتها اذا قيست
بحياة الحيوان .

وهناك نظرية أخرى لا ترى أن اللعب يقوم بوظيفة تحقق غرضا مستقبلا هو الاعداد للعمل الجدى كما تنص النظرية الاعدادية ، وانما ترى أن اللعب تلخيص للماضى . فترى أن ألعاب القذف والصيد والتسلق وجمع الأشياء وغير ذلك من الألعاب الكثيرة الفردية ، والجمعية غير المنتظمة ، ثم الجمعية المنتظمة التى تظهر بقوة فى دور المراهقة ، والتى يتبارى فيها فريق ضد فريق وينظم كل منهما نفسه تنظيما داخليا ؛ فلكل فرد مكانه ووظيفته فى اللعب ، ترى هذه النظرية أن كل هذه الألعاب تمثل أدوارا مختلفة فى تاريخ الانسان . فقد كان الانسان عند أول ظهوره قبل التحضر يعيش معرضا لعوادي الحيوان والطبيعة . وكان غالبا يعيش عيشة أقرب الى عيشة الحيوان فقد كان يسكن الغابة ويتعرض لأخطارها . وكان عليه أن يصيد ويتسلق وأن يطارد فريسته وأن تطارده الأسود أحيانا . وكان عليه أن يكون بارعا فى القبض والقنص والعض والجري والتسلق والاختفاء وما الى ذلك . ويفلب أن يكون الانسان قد مر بمراحل عدة قبل أن يستقر فى الأرض ويزرعها ويحراثها . ويتجمع فيها جماعات يعاون بعضها بعضا ، وتقتل جماعة ضد جماعة أخرى للدفاع أو الاعتداء . وكان ما كان من تطور هذه الجماعات عددا ومدنية وتنظيما وتقدما ، الى أن وصل الانسان الى ما وصل اليه الآن من الحضارة والترقى . وتقول النظرية التى نحن بصددتها : ان الانسان من ميلاده الى اكتمال نضجه يميل الى المرور بالأدوار التى مر بها تطور الحضارة البشرية منذ ظهور الانسان الى الآن . ويمر الانسان فى هذه الأدوار مرورا تلخيصيا عاما . ولذلك نجد يميل خلال السنة الأولى الى أن تلاعبه أمه بأن تخبىء نفسها ثم تظهر ، وأن تكرر هذا مرات عديدة ، ويميل هو الى أن يفعل ذلك أيضا . وعندما يمشى ويجرى تجده يميل الى المطاردة والتسلق والصيد وما الى ذلك ، مما يمثل حياة الانسان الأول عندما يعيش مع بقية الحيوان فى الغابات . وهكذا نجد الطفل ينتقل من ألعابه الفردية الى

اللعب مع رفاقه لعبا غير منتظم يتزعم فيه أحد الأطفال ثم يتزعم آخر ، ويصادق بعضهم بعضا ، ثم سرعان ما تنتهى هذه الصداقة لتحل محلها العداوة ، وهكذا مما يمثل حياة الجماعات البدائية التى تمثل المرحلة التالية لمرحلة انسان الغاب . وبعد ذلك نجد الأطفال يميلون الى الألعاب الجمعية المنتظمة التى يشيع فيها ولاء الفرد لجماعته ، والتى تشبه فى روحها حياة الجماعة المنتظمة الراقية التى نجدها فى الوقت الحاضر .

وترى هذه النظرية أن من ضرورات النمو النفسى السوى ، ان يمر الانسان بهذه الأدوار ، ويخرج منها حتى يكتمل نموه. ويرى «ستانلى هول» صاحب هذه النظرية أن الضفدعة لا تصبح ضفدعة مكتملة النمو الا بعد أن تمر فى مرحلة « أبى ذنبية » ولا بد « لأبى ذنبية » من ذيل طويل ، ولا بد لهذا الذيل من أن يقضى فترته ثم يختفى قبل أن يصبح الحيوان ضفدعة مكتملة النمو ، كذلك الرجل المتمدن المهذب المثقف الذى يتصف بالوقار والاتزان ، لا بد له أن يمر بمرحلة يتسلق فيها ويتأرجح ويطارد ويعض ويقتنص وغير ذلك ، قبل أن يصبح رجلا محترما . وقد أفاد «ستانلى هول» فى نظريته من دراسته العميقة لعلم « البيولوجيا » وللتطور بنوع خاص فقد كان من أوائل علماء النفس الذين قفزوا بالعلم على أساس ما أفادوا من نظرية التطور .

ولكن يلاحظ أن هذه النظرية امتداد لنظرية أخرى وهى النظرية التخليصية فى « البيولوجيا » ، وهذه النظرية تقول : ان جنين الكائن الحى يلخص مراحل التطور السابقة للمرحلة التى فيها نوعه ، وأول من صاغ هذه النظرية هو « فون باير Von Baer » فى أوائل القرن الماضى . حيث وضع فى أوعية مختلفة أجنة لحيوانات مختلفة ، ونسى أن يلصق بكل وعاء اسم نوع الجنين ، وأراد بعد مدة أن يحدد نوع كل جنين فتعذر عليه ذلك وعبر عن صعوبته بقوله : « اننى غير قادر على الحكم على أنواع هذه

الأجنة ، فقد تكون أجنة طيور أو سحالي أو ثدييات ، فالشبه بينها يكاد يكون تاما » . وقد أدت هذه الملاحظة الى دراسات واسعة النطاق على جنين الانسان (١) .

ومن بين ملاحظات الباحثين أن جنين الانسان يشبه في مرحلة من المراحل تكوين الأسماك ، فالقلب لا ينقسم الى نصفين أيمن وأيسر ، وانما يتكون من مجموعة واحدة من الفجوات تقوم بتوزيع الدم على أجزاء الجنين ، وكذلك لوحظ أنه بجانب الرقبة عند الجنين الانساني توجد فتحات تشبه خياشيم الأسماك وعند اكتمال النمو تظهر في موضعها الغدد الدرقية وجاراتها ، وكذلك يشبه تنظيم الأوعية الدموية والأعصاب تنظيمها عند الأسماك . وليس معنى هذا أن الجنين يحمل خياشيم ، ولكن الأمر مجرد تشابه بين هذا الجنين في مراحله الأولى ، وسائر الكائنات التي تأتي قبله في سلم التطور . ويتناول التشابه كثيرا من النواحي الأخرى كامتداد العمود الفقري ووجود ما يشبه الذيل لدى الجنين الانساني .

ولكى يميز « ستانلى » بين النظرية التلخيصية التي تتناول أعضاء جسم الكائن الحي والنظرية التلخيصية الأخرى التي تتناول ألعاب الانسان وأوجه نشاطه سمي النظرية الأخيرة باسم آخر وهو : « نظرية تلخيص الحضارة » Culture-epoch theory

ويؤخذ على نظرية «ستانلى هول» نضوب أدلتها وكونها مجرد امتداد لنظرية أخرى ؛ أدلتها على جانب كبير من الثبوت ، فالمقارنة بين الجنين في مراحله المختلفة ، والحيوان في مراحل تطوره المختلفة ، مقارنة مبنية على الملاحظة العلمية لكائنات موجودة بالفعل ، أما الموازنة بين أنواع نشاط الأطفال من بعد ميلادهم الى اكتمال نضجهم ، وأنواع النشاط

راجع كتاب قصة الحياة في جميع الاحياء للدكتور « طنطاوى »
والدكتور « القوصى » .

التي قام بها الانسان البائد ، فانها تقوم على كثير من التخمين . وقد يقال : ان درجات التحضر الموجودة بين مختلف سكان الأرض في الوقت الحاضر تمثل ما مرت به حضارات الانسان البائد ؛ ولكن ليس هناك ما يضمن لنا صحة هذا الرأي ، يضاف الى هذا أن مجرد التلخيص ليس أساسا من أسس علم الحياة ، ولكن العضو بشكله الخاص يؤدي وظيفة معينة في مرحلة معينة من مراحل النمو ، فاذا تم هذا النمو فقد يكون من اللازم أن يتغير شكل العضو حتى يلائم الوظيفة الجديدة . كذلك يؤدي نوع معين من أنواع اللعب وظيفة معينة في مرحلة النمو التي يكون فيها ، فاذا تم هذا النمو ولم يعد بالانسان حاجة الى هذا النوع من اللعب⁽¹⁾ انتقل منه الى نشاط آخر ، فنلاحظ مثلا أن لعب الطفل في المرحلة الأولى في أغلبه لعب فردي يترتب عليه فهمه لخصائص العالم المحيط به ، فيفهم الفروق بين الأشياء الصلبة والمرنة ، والجامدة والسائلة ، والحارة والباردة ، وغير ذلك من الخصائص . أما في دور المراهقة فاننا نجد الناشئ يميل عادة الى الألعاب الجماعية التي تعينه على كسب القدرة على التعامل الاجتماعي الناجح . فنوع اللعب في مرحلة ما يؤدي وظيفته في هذه المرحلة ، فاذا تم له ذلك فان الناشئ يميل الى الانصراف عنه الى نوع آخر من اللعب يتفق ومرحلة النمو الجديدة . معنى هذا أن أهمية اللعب أهمية اعدادية أكثر منها تلخيصية ، ويلاحظ كذلك ان نوع اللعب الذي ينتمى الى مرحلة ما ، قد نجده بصورة أخرى في مرحلة متأخرة . فالصيد مثلا نجده منتشرًا بين البالغين كما نجده بين الأطفال . كذلك اللعب بالمواد المرنة كالطين والعجين والصلصال والاستمتاع بتشكيلها في صور مختلفة ، يستمر في كثير من الأحيان على شكل هواية أو فن جميل في المراحل المتأخرة . هذا التداخل الواضح بين أنواع النشاط في مختلف المراحل ، يؤدي الى صعوبة تصور

(1) راجع الباب الثاني من هذا الكتاب .

الموازنة الدقيقة بين ألعاب المراحل المختلفة ومراحل تطور الحضارة البشرية، خصوصا اذا علمنا أن تحديد مراحل الحضارة ما زال في دور التخمين . وعندما ظهرت هذه النظرية في أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى ، كان لها أثر أكبر مما تستحق في تفكير القائمين بشئون التربية ، فقد أراد هؤلاء أن يرسموا مناهج التعليم للأعمار المختلفة بحيث تتفق وما يقابلها من مراحل تطور الحضارة . فحاول بعض المربين أن يجعل تدريس الحساب في المراحل الأولى متفقا مع الطريقة التى يظن أن الانسان الأول قد اتبعها في عد حاجاته وممتلكاته . والخطأ في هذا واضح ؛ إذ أنه يراد عمل منهج على أسس تخمينية . ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف المربون عقم هذه النظرية من الناحية التطبيقية ، فتخلوا عن جعلها أساس عملهم .

النظرية التنفيسية :

وهناك نظرية تشبه الى حد ما نظرية الطاقة الزائدة ، في كونها ترى أن اللعب منفذ للتنفيس عن الانفعالات المحبوسة . فللطفل شخصيته الانفعالية التى لا يمكنه عادة أن يستفرغ نزعاتها المكبوتة بالطرق الطبيعية غير المهذبة فاذا ضربه والده وغضب لهذا فليس من السهل عليه عادة أن يعبر عن ذلك تعبيرا يتفق مع حدة غضبه . ولكنه يجد في اللعب فرصة لتمثيل الغضب ، فتفرغ بعض انفعالاته المحبوسة ، ولهذه النظرية تاريخ قديم ، فهى ترجع الى تهمد «أرسطو» الذى يرى أن التمثيليات المحزنة وظيفتها معاونة المتفرجين على تفرغ أحزانهم التى لا يمكنهم تصريفها في الحياة العادية . كذلك اللعب يعطى مجالا لتفريغ الانفعالات وتطهير الانسان منها . ومن الواضح أن هذه النظرية غير كافية لتفسير اللعب ، فلا يمكن أن تكون وظيفة اللعب قاصرة على مجرد التنفيس ، ولا بد أن يكون له وظائف أخرى

ومن الوظائف الأساسية للعب أنه يهيء مجالاً لإعادة الاتزان إلى حياة الأطفال . فالطفل الذي يضربه أبوه لا يمكنه عادة أن يقابل الضرب بمثله ، وطبعي أن يشعر بكثير من الغيظ بسبب عدم قدرته على الانتقام لنفسه . ونعتبر في علم النفس أن الشعور بالغيظ اختلال في الحياة الانفعالية . ولكي يعود إليها الاتزان نجد الطفل يلعب مع زملائه ، ويجد الفرصة في هذا لتمثيل الضرب والغيظ وما إلى ذلك . فقد يلعب دور الوالد ويضرب من يلعبون معه دور الأبناء . وقد يلعب دور المدرس ويضرب من يلعبون دور التلاميذ . ومثال آخر أن بنتاً في سن الثانية كانت تشكو من عينيها ، وكان والدها يعالجها بالقطرة بالرغم من تضايقها وتألمها من ذلك . وكانت لها دمية صغيرة فكانت تتناولها وتفعل بها ما كان يفعله والدها ، وتقول لها نفس العبارات ، ثم تمثل مع دميها وضع القطرة في عينيها . ولعب الطفلة في هذه الحالة لعب تعويضي يعيد إليها الاتزان ، وليس مجرد تنفيس عن انفعال محبوس ، وإنما هو لعب بأسلوب خاص يؤدي وظيفة معينة ، وهي أن ما لا يتمكن الطفل من تحقيقه في الواقع يحققه في صورة لعب . فليس من الميسور أن تمسك الطفلة بوالدها وتضع القطرة في عينيه ، وإنما يتيسر لها هذا في مجال اللعب . ومثال آخر لطفلة في سن الثالثة كان الفرق في العمر بينها وبين من سبقها أكثر من عشرة أعوام . وكان والدها على درجة من الكبر جعلتهما قليلي الاشتراك معها في اللعب . وكان يحرمها من اللعب مع أولاد الجيران وفارق السن بينها وبين اخوتها كان يحرمها من فرصة اللعب معهم . فكانت تذهب إلى حجرة المطبخ ، وتتناول الزجاجات والعلب ، وتضعها في صف ثم تخاطبها واحدة واحدة ، وتعطي كلاً منها اسماً ، وتعاملها كما لو كانت رفيقات لها يشاركنها في اللعب . يلاحظ هنا أن ما لم تتمكن الطفلة من تحقيقه في حياة الواقع ، قامت بتحقيقه تحقيقاً خيالياً عن طريق اللعب . وبهذا قامت الطفلة بتعويض ما في حياتها من نقص .

وقد ظهرت هذه النظرية في ميدان التحليل النفسى ، وهى تستغل لتشخيص مشكلات الأطفال ومعالجتها . وتفسر على ضوء هذه النظرية الألعاب الايهامية التى يقوم بها الأطفال عندما يمثل الطفل فارسا أو طيبيا أو مدرسا أو غير ذلك . وتفسر كذلك شغف الأطفال بالقصص الخرافية . وشغف الطلاب بالكتابة عن مدرسيهم فى مجلتهم أو بتمثيل بعض شخصيات المدرسة على مسرحها .

اللعب الايهامى والقصة :

وهناك نوع من اللعب يكون شديد التشبع بعنصر الخيال . فالطفل الذى يمتطى عصاه جوادا ، ويحذر الناس من اعتراض طريقه ، يلعب لعبا ايهاميا يوهم نفسه فيه انه فارس . كذلك يلعب الطفل على أنه قطار ، أو أنه سائق ترام ، أو يلعب جزارا أو طيبيا ، ويقوم الخيال بتحقيق النزعة الى السيطرة التى لا يسهل على الطفل تحقيقها فى حياة الواقع وموقف الطفل من اللعب الايهامى يشبه موقفه عند الاستمتاع بالقصة الخرافية . فتجد فى القصة أن ولدا صغيرا قابل ماردا جبارا ، ومع ذلك تغلب عليه بالحيلة اللطيفة . عندما يستمع الطفل لقصة كهذه يطابق بين نفسه وبين بطل القصة ، ويطابق بين المارد الجبار وأصحاب السلطة عليه . ومن بين أصحاب السلطة والده ، فالوالد يتحكم فى الطفل ، والطفل يتضايق من هذا ولكنه يسر عندما يتغلب زميله بطل القصة على شبيه والده المارد الجبار . ونجد فى قصص الأطفال غولا يوصف عادة بالفظاظة والقوة ، ويكون كريها قبيحا . والغول فى القصة تمثيل للوالد أو لجانب منه ، هو جانب الجبروت والقوة والضبط والكتب وما الى ذلك . ومن بين قصص الأطفال ، نجد قصة فيها أخوة ثلاثة يخرجون للبحث عن خاتم سحرى . فيضل الأكبر طريقه ويحدث للثانى شىء يشبه ما حدث للأول ، وأما الثالث ، فإنه يخاطر ويقطع القفار والبحار على أن يفوز بطلبته ، وتكون سيبا فى خير كثير ،

وهذا الثالث هو أصغر الاخوة . والطفل الأصغر يكون في العادة مضطهدا من اخوته الكبار ، لأنه يفوز من عطف والديه بقسط أكبر مما يفوزون به ، فيتألمون عليه ويضايقونه ، ولكن اذا شكاهم لوالديه فقد يستمعان للشكوى مرات ، ثم يضيقان بكثرة شكواه فيصدانه بعض الشيء . ويزيد تضايقه فيجد في أعباه ، أو في أحلام اليقظة ، أو أحلام النوم ، أو الاستماع لقصة تشبه تلك التي ذكرناها ، سلواه وعزاه ، اذ يرى أن الطفل الأصغر برغم ما يقابله في حياته الواقعة من صعاب ، قد يأمل في خير كثير . كذلك زوجة الأب في القصة ، نجدها توصف وصفا منفرا ، ونجد أن سوء معاملتها لأبناء زوجها تنتهي آخر الأمر بانتصارهم عليها ، وتسوء عاقبتها . ويجد كل طفل في أمه جانبا من أوصاف زوجة الأب التي ترد عادة في القصة . اذ أنه يرى فيها أحيانا تحيزا لاختوته دونه . وبعبارة أخرى يرى أنها تعامل اختوته كما لو كانوا أولادها ، وأما هو فانه يرى أنها تعامله كما لو كان لأم أخرى . ويجد الطفل عند استماعه الى القصة متعة في المطابقة بين نفسه وبطل القصة ، وكذلك في المطابقة بين بعض جوانب أمه وبطلة القصة . وفي قصة «سندرلا» متعة لكل طفل . فقد لقيت ظلما كبيرا على يد أختها ، وعلى يد زوجة أبيها ، بالرغم مما كانت عليه من جمال رائع . ولكن القصة رفعتها فأرسلت اليها الساحرة التي دبرت لها الذهاب سرا الى قصر الأمير لحضور حفلاته . وكان عليها أن تعود قبل منتصف الليل . وفي احدى الليالي اتتصف عليها الليل في القصر قبل أن تعود ، فأسرت هاربة ، وسقط حذاءها . فلما وجد الحذاء في القصر طلب الأمير صاحبه لكي يتزوج بها . فلما وصلوا بالحذاء الى منزلها ، وجد أنه لا يناسب حجم أقدام أختها . فأصر رجال القصر على قياسه على أقدام الأخت الثالثة «سندرلا» ، فأنكرت الأختان ذلك اذ أن «سندرلا» لا تخرج الى حفلات القصر . وانتهى الأمر بزواج الأمير بـ «سندرلا» وكان هذا انتصارا كبيرا لها بعد عيش مليء بالذل والظلم . وكل فتاة تشعر بتحمل أخواتها عليها ، تجد لذة كبيرة في الاستماع الى قصة

«سندريلا» . وفي القصة نواح كثيرة على جانب كبير من الامتاع ، ففيها الحيل والمفاجآت ، وسرعة توالي الحوادث وارتباطها بعضها ببعض مما يجعلها محببة الى الأطفال .

والقصة تشبه الحلم كما قلنا ، وتشبه اللعب الالهامي . ففي القصة مجال لاعادة الاتزان الى حياة الأطفال الذين يجدون في كل قصة شخصيات تشبه من قريب أو من بعيد الشخصيات التي يقابلونها في الحياة ، والتي يضطرون للتعامل معها . وما ينطبق على قصص الأطفال ينطبق على الأدب الذي يستمتع به الكبار . وسر خلود هذا الأدب أنه يعبر تعبيراً صادقاً عن القدر المشترك بين الناس من الحياة الانفعالية الأولية . فنجد في «هاملت» غدر الأخ بأخيه جبا في الملك . ونجد صورة حية للرغبة في الانتقام في ظروف تؤدي الى التردد الشديد . ونجاح «شيكسبير» يرجع الى انتقائه للمواقف التي تبرز الغدر والانتقام والتردد بأوضح صورة معروفة . كذلك «ماكبت» فقد كان مثال الضعف في يد زوجته التي كانت تتوق الى الوصول الى الملك ، فدفعت بزوجها الى قتل الملك الذي كان ضيفا عنده في قصره ، وكان يمت له بصلة القرابة في نفس الوقت ، ولكن «ماكبت» تحت التأثير البالغ لزوجته ، ارتكب أشنع جريمة يمكن أن يرتكبها انسان . ثم عاش تحت وطأة تأنيب ضميره . وكل هذه الانفعالات كانت بارزة واضحة محدودة المعالم . ويجد كل انسان في خبرته ورود أمثال هذه الانفعالات بصورة مخففة غير محدودة . ويجد في قراءته لـ «شيكسبير» فرصة لفهم كثير مما بنفسه منعكسا على حياة شخصيات القصة .

التكرار والتوقيت واللعب :

ويميل بعض المشتغلين بعلم النفس الى اعتبار الميل الى التكرار استعدادا فطريا عاما ؛ فتجد الطفل يقذف بالكرة ليتناولها ويقذف بها مرة أخرى وهكذا . وتجده ينطق بالعباراة ويكررها مرات عدة . وتجده يميل الى الرقص والقفز وغير ذلك من الحركات . وتجده يكرر الواحدة منها

مرات كثيرة . ويميل الأطفال في هذا التكرار الى أن يكون به شيء من الانتظام ، فإذا قام الأطفال بنط الحبل تجدهم يقومون به كما لو كان على نغمات الموسيقى . ويذهبون أحيانا الى انشاد الأغاني في أثناء لعب الكرة وفي أثناء معظم ألعابهم . والذين يميلون الى اعتبار التكرار المنتظم استعدادا فطريا عاما يستندون في هذا الى أن الانتظام أمر طبيعي ، فالتنفس منتظم ، وكذلك دقات القلب وحركات الجري والمشي . ويرون الانتظام كذلك في الطبيعة ، في الشروق والغروب ، وفي تعاقب الفصول ، وفي المد والجزر ، وفي حركات الأجرام السماوية ، وفي حركة أجزاء الذرة حول نواتها . ولكن يكفي أن نعلل الميل الى التكرار تعليلا نفسيا لنعرف مكانته من بقية الاستعدادات . فالطفل اذا سمع لفظا جديدا غريبا عليه ، واذا وجد بعض الصعوبة في النطق به فانه يميل الى تكراره . وكلما تابع هذا ظهر نجاحه في القدرة على النطق به . فالتكرار وسيلة للسيطرة على الأشياء وللشعور بالمقدرة على أداء الحركات . ونجد أن الطفل بعد أن يتمكن من القيام بحركة معينة في لعب الكرة يواصل ممارستها ، ففي هذا اقناع له بمقدرته وفي هذا أمل بزيادة سيطرته على هذه الحركة . أما التوقيت في التكرار فمن شأنه أن يسهل القيام بالحركات . وهذا التسهيل يجعل القيام بالحركات فيه شيء من المتعة . والشعور بالتسهيل ناشئ من أن التوقيت يعاون على تكوين وحدة من أشياء قد تبدو متناثرة خالية من الوحدة بغير التوقيت . ولهذا يميل العمال الى انشاد الأناشيد ، والتوفيق بين حركاتهم وهذه الأناشيد ؛ وبهذا يصير في حركاتهم شعور بالسهولة ناشئ من تنظيمها على هيئة وحدة أو وحدات . ويلاحظ أن دخول التوقيت بهيئة شعر على القواعد النحوية ، جعل تكرارها وحفظها في ألفية « ابن مالك » على جانب كبير من السهولة . وأدت سهولة الحفظ الى خروجه عما قصد اليه ، حتى ان كثيرا ممن حفظوا ألفية « ابن مالك » لم يحسنوا تطبيقها . يبدو من ذلك أن التكرار لا يقصد عادة لذاته ، وانما يتبع لأنه وسيلة لغايات أخرى ، وهي اتقان الحركات والمهارات ، وسهولة أدائها ، وكسب الثقة بالنفس ازاءها . فالمرء بتكراره عملا ما يؤكد لنفسه مقدرته على القيام به . ونظرا لكون التكرار

يظهر عادة في أثناء اللعب ، ونظرا لكونه يظهر لتيسير النشاط واشباع السيطرة فاننا لا نميل الى اعتباره نزعة فطرية أساسية ، وان كان بعض المشتغلين بعلم النفس يختلفون مع هذا الاتجاه كما بينا .

توفيق بين نظريات اللعب :

أوردنا تفسيرات مختلفة للعب ، ووجدنا أن كل تفسير به جانب من الصواب . بل يمكننا أن نرى أن في أغلب هذه النظريات ما يكمل بعضه البعض الآخر ؛ فنظرية الطاقة الزائدة تضع شرطا اذا توفر فان الكائن الحي يميل الى اللعب ، ولكنه ليس الشرط الوحيد ، وانما هو عامل يساعد على اللعب . ومع الاعتراف به نرى أن اللعب ليس مجرد تخلص من طاقة موجودة ، وانما يفاد من هذه الطاقة في اعداد الكائن الحي للمستقبل . والكائن الحي عندما يلعب يعبر عن غرائزه التي يشترك فيها مع من سبقوه في سلم التطور ، وبهذا يبدو كأنه يلخص نشاط الماضي ، ولكن هذا لا يدفعنا الى الأخذ بالنظرية التلخيصية كشرط من شروط النمو ؛ فالنمو يخضع لقوانين عامة تشترك فيها الأفراد والجماعات . فنجد في نمو الفرد انتقالا يشبه الانتقال الذي يتبعه نمو الجماعة . وليس معنى هذا أن نمو الفرد متأثر بالنمو السابق للجماعة البشرية ، ولكن كل ما يعنيه أن النمو في كل من الحالتين يخضع لقوانين تكاد تكون واحدة ، وهي نفس القوانين التي تتبعها التطور البيولوجي . فعملية النمو في كل من هذه الحالات فيها انتقال من العموم الى التخصص ، ومن حالة عدم التمايز الى التمايز ، ومع حدوث هذا الانتقال يحدث التكامل والتماصك (١) .

وكذلك اذا نظرنا الى النظريتين التنفيسية والتحليلية ، فاننا نجدهما تشتركان مع بعض النظريات السابقة . فبين النظرية التنفيسية ونظرية الطاقة الزائدة شبه كبير . غير أن الأمر — كما قلنا — ليس مجرد تنفيس عن انفعالات مكبوتة ، وانما هو نشاط يؤدي الى اعادة الاتزان في حياة

(١) « Evolution is change from an indefinite, incoherent homogeneity to a definite coherent heterogeneity, through continuous integration and differentiation ».

Spencer as quoted by Flugel in A Hundred Years of Psychology.

الطفل ويمكننا من هذا أن نرى أن الوظيفة الأساسية للعب هي الوظيفة الاعدادية . أما الوظائف الأخرى فإنها وظائف ثانوية .

وهناك رأى يتجه الى التوسع فى معنى « الوظيفة الاعدادية » فىرى أن لعب الكبار اعدادى ، بمعنى أنه يعد الشخص للقيام بالعمل الجدى بعد فترة الاسترخاء التى يكون قد قضاها فى أثناء اللعب . ولعب الكبار ميزة كبرى ، إذ أنه يخرج الانسان من حياته الجدية المليئة بالتوتر الى حياة حرة تتصف بالاسترخاء . ولا يشترط للاسترخاء أن يقوم الشخص بعمل يخالف تماما ما يعمله فى الحياة الجدية. فالذى يعمل عملا عقليا قد يجد الراحة فى لعب الشطرنج أو الورق . والذى يعمل عملا جسيما قد يجد الراحة فى الرقص أو لعب الكرة ولكن يحسن أن يكون نشاط اللعب مخالفا لنشاط الجد ، حتى يكون التغيير أكبر ما يمكن ، وحتى تأخذ كل الأعضاء فرصة القيام بوظائفها .

اللعب والتربية :

سبق ان بينا أن اللعب هو أسلوب الطبيعة فى التربية ، وهو وسيلة لاعداد الكائن الحى للعمل الجدى الذى يقوم به فى المستقبل . وقد شعر المربون بهذا قبل أن يتحدد فكرتهم عن اللعب على الصورة التى بناها . فعندما نادى « روسو » بأن تترك الطفل للطبيعة ، وتبعه « فروبل » بإنشاء رياض الأطفال وجعلها تقوم على اللعب ، وكان محور الفكرة أن اللعب فرصة طيبة لنشاط تعليمى منتج وقد قامت « منتسورى » باقامة بيوت الأطفال وهيأتها بأجهزتها . وعند قيام الأطفال باللعب فى هذه الأجهزة تتدرب حواسهم ويتعودون الانتقال من نشاط سهل الى نشاط أكثر تعقيدا ، ويقومون بهذا من تلقاء أنفسهم تحت ارشاد قليل . وقد هوجمت أجهزة « منتسورى » لصبغتها التحليلية ، فبعض هذه الأجهزة يرن العين ، وبعضها يرن الأذن ، وغير ذلك . وهوجمت كذلك لجفافها ، ولعل هذا الجفاف يرجع الى تلك الصبغة التحليلية ، وتذهب « منتسورى » الى تعليم القراءة والكتابة والعد عن طريق اللعب بأجهزة وضعت خصيصا لهذه الأغراض .

وقد ظهرت لتعليم النواحي اللغوية أساليب كثيرة تعتمد على روح اللعب ، فالانطلاق في التعبير ، وحسن الالتقاء وروعة الاخراج ، كل هذه تجيء عن طريق التمثيل ، وتتجه بعض المدارس الحديثة الى جعل التمثيل محور تعليم اللغات فيها . فيذهب التلاميذ الى المكتبة ويقرءون ما فيها من روايات تمثيلية ، ويوازنون بينها ويدرسون امكانيات اخراجها على مسرح المدرسة ، واسناد الأدوار المختلفة الى التلاميذ كل بحسب شخصيته ، مما يساعد على حسن دراسة التلاميذ لهذه الروايات ، ودقة تحليلهم لها ، والمفاضلة بينها ، ويساعد فوق هذا على فهم التلاميذ بعضهم لبعض ، اذ يناقشون صلاحية هذا للقيام بهذا الدور ، وعدم صلاحيته للقيام بدور آخر وهكذا . ونعلم كذلك ان من خير الوسائل لتعليم اللغة الغناء والأناشيد والقصص ، ويمكن الاستعانة بما يسمى الألعاب اللغوية في اتقان صحة التعبير .

فهناك ألعاب يتسابق فيها التلاميذ ، فالذي يخطيء في رفع الفاعل أو نصب المفعول يخرج من الصف مثلا ، والذي يصمد الى آخر الشوط يكون هو الفائز على أقرانه .

ويمكن تطبيق هذا وأمثاله على مختلف التراكيب التي تتمثل فيها القواعد اللغوية المختلفة ، وقد ضرب « كولدول كوك » ^(١) بسهم وافر في استغلال اللعب في تعليم اللغة .

وكل نوع من أنواع التعليم يقوم على اعطاء التلميذ قسطا من الحرية يشترك مع اللعب في خاصة من أهم خواصه . ففي تعليم العلوم ، يمكن أن يقف التلميذ من مختلف المواد ومختلف الكائنات موقف الباحث المكتشف ، وبهذا يقف المدرس موقف الملاحظ الموجه ، فبدلا من أن يجلس جميع التلاميذ خاضعين لنظام المدرس ، منصتين لما يقول — وفي هذا من حالة التوتر قسط غير قليل — ينتحى المدرس جانبا ، ويترك للتلميذ بعض الحرية ، مع الأدوات والأجهزة ، لي تجربها ويستعملها ، تحت الارشاد الذي يكفي

(١) The Play Way

لعدم الحاق الخسارة بها ، ولعدم انطلاقة فيما يلحق به ضررا ، أو يعده عن جادة الصواب ، في ملاحظاته واستنتاجاته .

ومن أساليب التعليم التي تمتزج بخصائص روح اللعب اجراء التجارب ، ورؤية النماذج ، ومشاهدة الصور والأفلام السينمائية ، والقيام بعمليات التحنيط ونحت النماذج ، والقيام بالرحلات والمعسكرات وما الى ذلك .

ويلاحظ أن الطرق الحديثة المعروفة بطريقة المشروع ، وطريقة «دالتون» ، ونظام الأسر تتميز كلها بطابع الحرية والتلقائية التي يتميز بها اللعب . ففي طريقة المشروع مثلا يكون لدى الفصل مشروع يراد القيام به ، ولكي يتم هذا يلزم وضع الخطة وتنفيذها ، ويصحب وضع الخطة وتنفيذها ، جمع البيانات وكسب المهارات العقلية واليدوية اللازمة . وللنجاح في اتمام المشروع يتعاون التلاميذ بعضهم مع بعض ، وينظمون أنفسهم ، ويصبح لكل منهم عمل معين ، فاذا تم المشروع أحسوا بأنهم أدوا عملا ملموسا جهزوا له كل شيء بأنفسهم دون تدخل أو ضغط من جانب المدرس .

والدور الذي يلعبه المدرس يشبه الدور الذي يلعبه أى واحد من التلاميذ . فهو يشترك معهم في التفكير ، وجمع المعلومات ، ووضع الخطة موضع التنفيذ وما الى ذلك . وبهذا يكون المشروع نشاطا تلقائيا حرا معبرا عن حاجات التلاميذ ورغباتهم ، ويتميز فوق هذا بشيء من التنظيم الذي يساعد على الانتقال من مستوى الى مستوى أعلى ، وبهذا يتم النمو .

ونجد التلقائية والحرية ، واضحتين في طريقة « دالتون » فعلى التلميذ أن يختار مواد الدراسة التي تحقق الغرض النهائي الذي يرمى اليه . وعليه بعد أن يختارها اختيار الوقت الذي يلائمه لدراستها . وبهذا تحولت المدارس الى معامل دراسية يذهب اليها التلاميذ بعد ان كانت فصولا يحشر فيها التلاميذ ، ويذهب اليها المدرس بقليل من الأدوات ، ويتذرع بأساليب الضبط والتنظيم والتقييد التي تضمن له القاء درسه .

أما نظام الأسر فإنه يقوم على تقسيم التلاميذ الى مجموعات ، لكل مجموعة منها حياتها الرياضية والاجتماعية ، ويقوم أفراد الأسرة بوضع برامجهم ، وتنفيذ هذه البرامج ، مما يترتب عليه توثيق العلاقات بينهم ، وتعليمهم الأخذ والعطاء ، وتقدير بعضهم بعضا ، وتحمل أخطاء الغير ، وتقديم واجباتهم نحو غيرهم على حقوقهم عند غيرهم ، وغير ذلك مما يترتب عليه تكوين الصفات الاجتماعية العالية .

وثبت أن هذا يتم في سهولة واتقان في جو حر ، ولذا كان النشاط الرياضي ونشاط السمر والرحلات والمعسكرات ، من خير أنواع النشاط التي تقوم بها الأسر لتحقيق الأغراض التي يقصد اليها من تكوينها . وعلى ضوء ما تقدم نرى أن المدرس يمكنه أن يستفيد من فهمه لخصائص اللعب في اتجاهين .

أحدهما : أنه خير مجال لفهم نفسيات التلاميذ والوقوف على استعداداتهم .

والاتجاه الثاني : أنه خير وسيلة لتعليمهم وتربيتهم اجتماعيا وخلقيا .

المراجع

1. Isaacs, S. : The Nursery Years.
2. Lowenfeld, M. : Play in Childhood.
3. Mitchell & Mason : Theoty of Paly.
4. Norsworthy & Whiteley : Psychology of Childhood.
5. Nunn, P. : Education Its Data and First Principles.
6. Reaney : Place of Play in Education.
7. Sully : Children's Ways. Ch. II.
8. Thomson : Instinct, Intelligence and Character, Ch. IV.
9. Year-Book of Education. 1936. p. 313.

obeyikandi.com

الفصل الثالث عشر

نقد و تقدير لنظرية الغرائز

مقدمة :

عالجنا في الفصول السابقة ما سميناه السلوك الفطري ، وتكلمنا عما يحتمل أن يكون وراء هذا السلوك الفطري من استعداد فطري أو غريزي للقيام بهذا السلوك . وتجنبنا - قدر الامكان - استعمال كلمة « غريزة » لا لأن هذا مصطلح لا يجوز استعماله ، ولكن لأنه قد أسىء فهمه وأسىء استعماله . والذين أساءوا فهمه واستعماله هم من الذين يدافعون عن نظرية « الغرائز » ومن الذين يهاجمونها على حد سواء . ولكن اذا عرفنا أن الغريزة لا تخرج عن كونها صفة غريزية ، وأنها طبيعة أو صفة طبيعية صار مفهوم الكلمة مقبولا . فمن طبائع الانسان أو الحيوان أن يهرب من مواقف الخطر ، وعلى هذا نقول : ان الانسان عنده استعداد للهرب من مواقف الخطر ، واستعداده هذا طبيعي أو غريزي . وتلخيصا لهذا كله يقال : ان عنده غريزة الهرب ، أو الدافع للهرب اذا وجد نفسه في موقف يتصف في مجموعه بصفات معينة ونحن لا نرى أى مأخذ على هذا التعبير أو على غيره مما يشبهه .

ويتجه بعض علماء النفس الأمريكيين الى انكار هذه الفكرة على أساس ان الاستعداد المطلق للهرب مثلا أمر لا وجود له ، فهذا يهرب من حيوان ، وذلك يهرب من الحشرات ، وآخر يهرب من نقد زملاء ، فكل امرئ له مخاوفه الخاصة . ولكن معنى هذا - في نظرنا - ان كل امرئ له « مخاوف » فالاستعداد للخوف أو الهرب موجود عند الناس جميعا ، وانما

تختلف موضوعاته أو تفاصيل مواقفه وأساليب التعبير عند الأفراد اختلافات شاسعة . مثل هذا كمثل أى مفهوم لأى لفظ عام فالكتاب مثلا مدرك عام وان كان كل كتاب يختلف عن كل كتاب آخر فى موضوعه وفى طباعته ونجد ان نسخ الطبعة الواحدة من الكتاب الواحد تختلف كل واحدة منها عن الأخرى فى درجة استعمالها ، أو فى ثمنها ، أو فى موضعها ، أو فيما يحدث لها ؛ ولكن هذا لا يمنعنا من التكلم عن « الكتاب » بصفة عامة (١) وحيث ان الخوف من « الصراصير » يختلف فى موضوعه ونشأته وطريقة التعبير عنه عند شخص ما عن الخوف من « سوء السمعة » عند شخص آخر فقد اتجه هؤلاء العلماء الأمريكيون المحدثون الى اعتبار أن البيئة هى كل شئ فى خلق هذه الاتجاهات ، ويتضح الأمر اذا تذكرنا ان هذا من بقايا آثار المدرسة السلوكية التى انتشرت أكثر ما انتشرت فى أمريكا . وفى هذا الموقف ما يشبه الرجوع الى الفكرة القديمة القائلة بأن الطفل يولد وعقله صفحة بيضاء ، وعلى هذا يمكن للمربي أن ينقش عليها ما يشاء .

وليس من المستحسن أن ندخل بعمق فى جدل بين مختلف الآراء ازاء نظرية مثل نظرية الغرائز ، لأن الدخول فى مثل هذا الجدل معناه ضرورة البدء بالامام التام بمختلف وجهات النظر ، ثم الانتقال الى الموازنة بينها . ولكن بعض المحدثين من المشتغلين بعلم النفس بهرتهم اتجاهات المدارس الأمريكية ، فاخذوا بها لا لسبب الا لأنها ثورة على القديم وقد سبق أن ذكرنا ان ليس كل حديث صحيحا ، وليس كل قديم باطلا . فينبغى أن يكون التحيز لنظرية دون أخرى مبنيا على أساس الدرس . على أنه لا توجد نظرية غير قابلة للتعديل ؛ فالثبوت والجمود مضادان لطبيعة العلم .

الاستقلال الوظيفى للدوافع :

من أشد الهجمات التى وجهت الى نظرية الغرائز تلك التى قام بها « أولبورت » (٢) ؛ ذلك لأنها تقدم عددا من الغرائز ينسب اليه السلوك

(١) كذلك تشترك الحشرات والطيور والحيوانات والانسان فى حاسة الشم ولكنها تختلف فى الأجهزة الجسمية اللازمة للقيام بعملية الشم وحتى فى الانسان تختلف الأنوف اختلافات شاسعة .

(2) G. W. Allport : Personality : A Psychological Interpretation p.193.

الانسانى فى كل مراحلها ، وتعتبر ان هذه الغرائز هى مصادر السلوك ،
ومنابع القوة ، وما الى ذلك . ويرى « اولبورت » ان هناك مبدأ آخر يجب
أن يكمل المبدأ التبعى (Generic) وهذا المبدأ هو « الاستقلال الوظيفى
للدوافع » . « The Functional Autonomy of Motives »

وينص هذا المبدأ على أن دوافع الانسان البالغ وان كانت قد نمت من
دوافع سابقة الا انها مستقلة عنها ، ويفغدى بعضها بعضا . ويشبه
« اولبورت » هذا المبدأ بما يحدث فى حياة النبات ، فالبذرة تنمو الى أن
تصبح شجرة كاملة بجذورها وأليافها وأوراقها وثمرتها . واذا أردنا — فى
نظره — أن نفهم حياة الشجرة من الناحية الوظيفية فاننا لا نعود الى بذرتها
التي كانت موجودة من عشرين عاما مثلا ، وانما نفهمها على أن أجزاءها
يفغدى بعضها بعضا ، ويقوى بعضها بعضا بغض النظر عن البذرة . فالعلاقة
بين الشجرة الحالية والبذرة القديمة فى نظر « اولبورت » علاقة تاريخية ،
وليست علاقة وظيفية . فالحياة الوظيفية للشجرة مستقلة تماما عن حياة
البذرة ، وهذا ما يسمى « بالاستقلال الوظيفى » . فالشخص عنده دافع
للتدخين لأنه يحب التدخين . ومن الجائز أن يكون قد بدأ التدخين فى
صغره للاستطلاع ، أو ليحس بأنه كبير مثل زملائه الذين يدخنون . ولكن
الدافع للتدخين عند الشخص الكبير مستقل فى نظر « البورت » عن هذه
الدوافع الأولى .

بهذا لا ينكر « اولبورت » الغرائز وانما يقلل من أهميتها فى تفسير
سلوك البالغين . وبهذه الطريقة عينها يقلل كثيرا من أهمية التحليل النفسى ،
ويراه مبالغا فى الرجوع بتصرفات الكبار الى حوادث الطفولة ودوافعها^(١) ،
ويرى ضرورة معالجة الدوافع الحالية فى ظروفها الحالية .

لا ينكر « اولبورت » ان الدوافع الفطرية تتحول الى دوافع جديدة ،
والمعروف ان أصحاب نظريات الغرائز جميعا أكدوا ان « الغرائز » البشرية
تتحول ، وتتعدل ، وتنمو عنها دوافع جديدة سميت بـ « العواطف »

G. W. Allport : Personality p.194. (١)

و « الميول » و « العقد » .. وما الى ذلك . ومعروف كذلك أنهم نادوا بأن هذه التكوينات الجديدة يغذى بعضها بعضا ، ويتكامل بعضها مع بعضها الآخر . غير ان الذي يؤكده « اولبورت » هو ان هذه التكوينات الجديدة مستقلة استقلالاً وظيفياً تاماً عن الدوافع الفطرية الأولى .

هذه التكوينات تكون كذلك أحيانا ، ولكنها — في نظرنا — لا تكون كذلك دائما . ولا أدل على ذلك من مكتشفات التحليل النفسى التى لا يمكن أن ينكرها — على الأقل — مشتعل بعلم النفس . ولكننا نعتقد أن « اولبورت » ينكرها لدافع شخصى لاشعورى ، وهى أنها لا تتفق ونظرياته على ان كل ما عمله « اولبورت » هو انه أطلق اسما جديدا على فكرة قامت على يد « وليم جيمس ^(١) » و « مكدوجل ^(٢) » .

وليس معنى دفاعنا هذا أننا نريد أن نستبقى نظرية « الغرائز » بالصورة التى ظهرت عليها . فليس أضر بالمعرفة من موقف كهذا ؛ إذ أن معناه الاصرار على الجمود وعدم الرغبة فى التقدم . ولكن ليس معنى التجديد أو عدم الجمود اننا اما أن نرفض كل ما قال به عالم من العلماء مثل « مكدوجل » أو « ستوت » أو « فرويد » واما ان نقبله برمته . فليس لعالم من أئمة العلماء آراء صحيحة على اطلاقها . وليس لعالم من أئمة العلماء آراء خاطئة على اطلاقها .

فعلينا اذن أن نتأمل ما وصل اليه مختلف العلماء فنقبل جانبا من هذا وجانبا من ذلك ، ويكون رائدنا فى القبول أو الرفض هو الرجوع الى الأدلة وبهذا الموقف يكون لكل عالم من العلماء المحدثين شخصيته المفقومة من شخصيات الأئمة . وتقوم هذه الشخصية على اتقاء الآراء وتأليفها تأليفا يتفق مع ما وصل اليه من نضج وخبرة شخصية وتجريب ذاتى ^(٣) .

(1) Transitoriness of Instinct : see William James' Principles of Psychology.

(2) See habits, sentiments, etc., in any book written by Mc Dougall.

(٣) إذا انتظرنا غير هذا من المحدثين ممن يشتغلون بعلم النفس فانهم سيصيرون نماذج متطابقة مصبوبة فى قالب واحد وبذلك لاتكون شخصياتهم بصورة مستقلة ، وانما يظلون تابعين لغيرهم معتمدين عليهم دائما . وهناك احتمال آخر ، وهو أن يضل المحدثون طريقهم فى وسط خضم الحقائق =

ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن شخص بعينه مثل « فرويد » أو « مكدوجل » ولا عن نظرية برمتها مثل نظرية « مكدوجل » أو « دريفر » في الغرائز . ومفهوم الغريزة عندي ليس مطابقا تمام المطابقة لمفهوم الغريزة عند عالم بالذات .

والذي لا شك فيه ان الانسان لا يولد وعقله صفحة بيضاء كما زعم « لوك » وانما يولد وعنده قوى تدفعه في بعض المواقف للقيام بتصرفات تخدم أغراضه الحيوية . وهذه القوى يمكن أن نسميها « الغرائز » أو « الدوافع » أو « القوى المحركة » (1) أو غير ذلك من الأسماء التي شاع استعمالها في ميادين علم النفس الديناميكي بمختلف تشكيلاته . وهذه المصطلحات جميعها أنواع من العملة الصالحة للاستعمال ، ويمكن احلال أحدها محل الآخر في الوقت الحاضر دون أى خسارة على شرط أن تفهم قيمة كل منها فهما جيدا .

الغرائز والنضج :

ويعترض على هذه الفكرة بأن أنواع السلوك لا تظهر كلها في أول الحياة . ولهذا لا يمكن اعتبارها فطرية .

فيرى « واطسون » مثلا أن هناك ثلاثة أنواع من السلوك الغريزي ، وهى : ارجاع الخوف « Fear Response » ، وارجاع الحب ، وارجاع الغضب . فارجاع الخوف تظهر عند الاستماع للصوت العالى أو فقد السند ، وارجاع الحب تظهر عند المداعبة ، وارجاع الغضب تظهر عند تقييد الحرية في الحركة . وكل ما يظهر بعد ذلك من أنواع السلوك مكتسب — في نظره — من البيئة نتيجة للتعليم الشرطى .

والنظريات فيصيبهم الاضطراب والتناقض وتبدو أقوانهم وكتاباتهم مفككة متناقضة لا وحدة فيها . ذلك لأنها تقوم على بصر زائغ وعلى الجرى مرة وراء هذا ، ومرة أخرى وراء ذاك وعلى النقل تارة من هنا وتارة من هناك . أما الأقوال والكتابات والآراء الصادرة عن مثل هذا الموقف فإنه يعسر فهمها على قارئها وسامعها ويعسر أحيانا على كاتبها وقائلها لأنها صادرة في سرعة وعن غير هضم . ومن العجيب أن يفسر هذا العسر أحيانا على أنه نوع من العمق .

(1) Instincts, Drives, Motives, Urges, Propensities, Needs, Tendencies.

ومعنى هذا ان الناحية الجنسية بصورتها الكاملة مكتسبة أيضا لأنها لا تظهر الا في جزء متأخر من حياة الانسان .

ولكنه واضح أن هذا الرأي لا يمكن الأخذ به فالبذرة مثلا توضع في الأرض ، وتروى ، ثم تظهر الأوراق ، ثم تظهر الزهرة فالثمرة . وليس معنى تأخر ظهور الورق والزهر والثمر ان هذه أشياء مكتسبة أو أن الاستعداد لها لم يكن كامنا في البذرة نفسها . فتأخر ظهور الشيء لا ينفي فطريته بحال من الأحوال . ولهذا ينتفى اعتراض القائلين بأن الضحك ، أو السيطرة ، أو الخضوع ، أو الاجتماعية ليست استعدادات فطرية لأنها تظهر متأخرة . وربما كانت هذه الظواهر غير فطرية ، ولكن تعليل هذا يكون بعلل أخرى غير تأخر ظهورها . ولهذا تنتفى حجج « بردجز » و « ملر » و « دولارد » وأمثالهم في هذا الاتجاه .

الفصل بين الغرائز :

واعترض بعض علماء النفس على نظرية « مكدوجل » في الغرائز انها تتحدث عن غرائز مستقل بعضها الآخر ، فهذه غريزة الوالدية ، وتلك غريزة المقاتلة ، وأخرى هي غريزة البحث عن الطعام .. الى غير ذلك مما يقرب من عشرين غريزة . ولكن هذا الذي نسب الى « مكدوجل » فيه شيء من المبالغة . ف « مكدوجل » يتحدث عن الغرائز في الحياة النفسية كما يتحدث عالم التشريح عن العين ، والأذن ، وعن هذه العضلة وذلك العصب ، ومع ذلك لا يهمل عالم التشريح ما هنالك من تكامل الجسم . كذلك « مكدوجل » كان من أول من تحدثوا عن التكامل النفسى والتكامل الجسمى (١) .

على أن هذا الاعتراض له بعض الوجاهة ، فقد أسىء فهم الغرائز فأصبح بعض المفسرين والمربين يفسرون بعض المشكلات على أساس غريزة واحدة ، فيقولون : هذا الولد عنده غريزة المقاتلة قوية ، وعلى هذا نعمل معه « كذا وكذا » ولا شك ان هذه نظرة ضيقة ضارة ، فهي تهمل تآزر الدوافع المختلفة ، وتهمل العلاقة الوظيفية الكلية بين الانسان وبيئته في ماضيه

(١) راجع كتاب مكدوجل « Physiological Psychology »

وحاضره ، وتهمل أهداف الانسان التي يوجه طاقتها النفسية ودوافعه مجتمعة الى تحقيقها (1) .

فالخطأ ليس في النظرية ، وانما هو في التطبيق الذي أوحى به بعض القصور في فهم النظرية أو في عرضها .

والذين يقدمون هذا الاعتراض هم أصحاب نظرية الجشتالت : وهم يؤمنون بالكلية ، ولكن التفاصيل لا تنتفى معها الكلية ، فالمثلث له تفاصيله من رءوس ، وزوايا ، واضلاع ، ولكن هذا لا يمنع من أن له مثلثته الكلية ، فليس معنى تحدثنا عن ناحية ما اننا نسينا أنها عديمة المعنى بمفردها ، وانها تشتق معناها من الكل الذي تنتمي اليه . كذلك كون الانسان عنده استعداد للهرب لا يمنع من كونه كائنا حيا يعمل ككل .

يقول أصحاب نظرية الجشتالت — وعلى رأسهم « ليفين Lewin » — ان السلوك لا يكون نتيجة للغرائز ، وانما ، هو نتيجة لاختلال التوازن ، والسلوك يؤدي الى اعادة الاتزان . واختلال التوازن هذا يؤدي الى حالة توتر الكائن الحي والسلوك يقصد به انتهاء حالة التوتر . وفكرة التوتر قائمة على فكرة القوى واتجاهاتها في داخل الكائن الحي وفي خارجه . ومن أبسط الأمثلة لأعادة الاتزان أن الشخص اذا كتب خطابا لوالده فانه لا يهدأ الا اذا أودعه صندوق البريد ، ولكي يصل الى هذا يقوم بسلوك يؤدي الى الايداع ، والى حالة الاتزان والهدوء .

ورد آخر على هذا الاعتراض : أن الذي يتمن دراسة القائلين بنظرية الغرائز — ك « مكدوجل » و « تانسلي » و « فرويد » و « آدلر » و « ثاولس » وغيرهم — يرى أنهم يتكلمون عن طاقة غريزية عامة ومسالك خاصة ، فيتكلم « ينج » عن الطاقة الحيوية ، ويتكلم « فرويد » عن « النهى » ويتكلم « بيرت » عن الاتفاعلية العامة ، ويتكلم « مكدوجل » عن المنبع العام للطاقة البشرية .. وهكذا .

ومعنى هذا أنه يمكن التوفيق بسهولة بين فكرة الجشتالتيين وفكرة

(1) راجع الباب الثاني « الخصائص الاساسية للحياة النفسية »

أصحاب نظرية الغرائز ؛ فكلا الفكرتين تتضمن الايمان بالكلية وتفصيلها ، وكلاهما تؤمن بالقوى الخارجية والداخلية ، وكلاهما تؤمن باعادة الاتزان لازالة التوتر مع اختلافات في أسلوب البحث وفي عرض نتائجه .

عموم الغرائز في أفراد النوع :

ومن المسلمات في نظرية الغرائز انها عامة في أفراد النوع . وقد اعترض الكثيرون خصوصا علماء « الاثربولوجيا » على هذا التعميم ، فقد سجلت « مرجريت ميد Margaret Mead » وغيرها الاختلافات الشاسعة بين تصرفات افراد القبائل المختلفة وطرق معيشتهم فهناك قبيلة « ارابش Arapesh » لا يميل أفرادها للمقاتلة ، فهم أناس هادئون مسالمون وقبيلة أخرى تجد أفرادها يميلون للعدوان والعنف في حركاتهم وتعبيراتهم وتصرفاتهم وهناك قبيلة ثالثة لا تظهر النزعة للملكية عندهم .

ولكننا نشك بعض الشيء في عمق هذه الملاحظات وفي اتساعها ، ونشك في صحتها أو في صحة المقصود عند وصفها والتعبير عنها ، الا اذا أخضعت للتجريب والملاحظة على نطاق واسع . ومع هذا فقد أكد أصحاب نظرية الغرائز ان الغرائز شديدة التأثير بظروف البيئة لدرجة تجعل من العسير جدا دراستها . ومرونة الغرائز عند الانسان وشدة تأثرها بما عنده من ذكاء وثقافة هي التي موهت فكرة الغرائز على الباحثين الى أن جاء « داروين » ف « وليم جيمس » ف « مكدوجل » .

الغريزة والانفعال :

كذلك كان من بين مسلمات « مكدوجل » في نظرية الغرائز ان كل غريزة لها انفعال مركزي ، وهذه من أضعف النقط في نظرية « مكدوجل » وقد ظهر هذا الضعف في عرض « مكدوجل » نفسه ، فكان واضحا عندما نسب الحنو للوالدية ، والغضب للمقاتلة ، والشهوة للجنسية ، ولكن لم يكن واضحا عندما أراد تحديد الانفعال المصاحب لغريزة التملك ، والحل والتركيب ، والاجتماعية ، والضحك ، والنوم . والواقع انه تعرث في هذا .

(1) J. Dreyer : The Instinct of Man.
Educational Psychology.

وقد هاجمه « دريفر »^(١) وقال بالغرائز غير أنه لم يوافق على فكرة انفعال أولى خاص بكل غريزة فهو يرى أن الفعل الغريزي يصحبه اهتمام « Interest » وهذا الاهتمام يزيد باعتراض سبيل الفعل الغريزي . واعتراضنا على رأى « دريفر » ان هذا لا يفسر اختلاف الغضب (المصاحب للمقاتلة) عن الخوف (المصاحب للهرب) وقد بينا كذلك فيما سبق أن الاتفعال يكون واضحا اذا كان الدافع يتطلب اجراء سريعا كالمقاتلة ، ويكون الاتفعال غير واضح اذا كان الدافع لا يتطلب سرعة في الاجراء كالتملك والاستطلاع . ولكن هذا الرأى الذى أوردناه يبين السر فى وضوح الاتفعال وعدم وضوحه ولا يبين السر فى تميز انفعال فى جوهره عن انفعال آخر .

على اننى أرى أن « مكدوجل » — وان كان قد أدى خدمة كبرى بتقديمه نظرية الغرائز — يبدو انه بالغ فى تفصيل الغرائز وتعددتها ومشكلة كهذه رهينة بتقدم البحث . وليس معنى هذا انى معترض على تقسيماته ؛ ولكن معناه انى أعلق الحكم عليها . فانا لا أوافق الذين ينتقدون « مكدوجل » سلبا فقط بقولهم : اعتراضنا عليه فى التحديد ؛ فهم كأنما يريدون أن يحل الغموض محله .

تحديد السلوك الغريزي :

ومن الاعتراضات الضعيفة التى وجهت الى نظرية الغرائز ان السلوك الغريزي ليس محددًا فى الانسان وان كان محددًا فى الطيور والحشرات ؛ وما دام هذا التحدد منعدهما فى الانسان فمعناه اتساع الاختلاف بين أنواع السلوك ، ومعناه انه لا يمكن التسليم بفطريتها ، والواقع أن درجة تحدد قالب السلوك تقل فى الكائنات الحية كلما ارتفعنا فى سلم التطور . حقيقة ان اسلوب المقاتلة عند حشرة ما واحد فى كل أفراد نوعها ، ولكنه متعدد متنوع فى أفراد الانسان فى مختلف الأزمنة ومختلف الأماكن ، وحتى عند الانسان الواحد من وقت الى آخر ، أو على الأقل فى أعماره المختلفة بحسب تعلمه وخبرته . فكل انسان بحسب نظرية الغرائز عنده استعداد للمقاتلة ،

ولكن ما يدعو للمقاتلة يختلف من شخص الى آخر ، وعند الشخص الواحد من وقت الى آخر . كذلك أساليب المقاتلة تختلف من شخص الى آخر ، وعند الشخص الواحد من وقت الى آخر ، ويرجع الاختلاف الى أثر البيئة مما أدى بأصحاب نظرية البيئة الى اتخاذ عدم تحدد أنواع السلوك عند الانسان ذريعة الى انكار فطريتها . ونظرية الغرائز تؤمن بأثر البيئة وتؤمن كذلك بأثر الفطرة أو الوراثة . أما معارضو نظرية الغريزة من أصحاب نظرية البيئة فيرون ان البيئة هي كل شيء . ومن رأبي ألا يؤخذ بفكرتهم على اطلاقها .

الغرائز والتكوينات الجسمية والعصبية :

عند تعريف « مكدوجل » للغريزة قال : انها استعداد جسمى (عصبى) نفسانى فطرى . وعند توضيحه لما يقصد بين أن الكائنات الحية لها من تكويناتها الجسمية ما يساعدها على القيام بالسلوك الغريزى ، فالطير له من تكوينه الجسمى والعصبى ما يساعده على بناء العش . والحيوان له من تكوينه الغددى والعصبى ما يساعده على الاتصال الجسمى . وهكذا .. فذهب الذين يريدون تحطيم نظرية الغرائز الى ان المقصود بهذا ان كل غريزة نجد لها مقابلاتها الجسمية، ومقابلاتها العصبية القائمة بذاتها . فهذا عضو للمقاتلة ، وذاك تكوين عصبى للمقاتلة ، وهذا ما لم يقصد اليه أحد ؛ وانما المقصود ان التكوين الجسمى والعصبى فى جملته وتفصيلاته من العوامل التى تدخل فى تحقيق الغايات الحيوية للكائن الحى فى جملتها وتفصيلاتها . والعيب فى ناقدى أصحاب نظرية الغرائز انهم استنتجوا ما قصد اليه « مكدوجل » وغيره وبعد ان استنتجوه بدعوا يهاجمونه بالرغم من عدم وجوده .

ومثل التكوينات الجسمية والعصبية وعلاقتها بالغرائز — فى نظرنا — كمثل التكوينات الجسمية والعصبية وعلاقتها بالمقدرات الموسيقية ، والمقدرات اللغوية ، والنواحي الحسية والحركية . فهذه تكويناتها التى تشترك معها ومع غيرها وتستمد فوق ذلك نشاطها وتوجيهها من التكوين الجسمى والعصبى العام .

وعندما أراد بعضهم أن يستغنى عن كلمة غرائز بكلمة دوافع فطرية قالوا : ان الدوافع تكون فطرية أو وراثية اذا كان لها أساس « بيولوجى » وعرفوا الأساس « البيولوجى » بأنه الأساس العضوى . فالدافع الجنسى فطرى أو وراثى لأن بالجسم التركيب الغددى الخاص به . ووجدوا فى تجارب الأمريكين وغيرهم ما يسارع الى الربط بين الأمومة أو الجنسية ، والتكوين الجسمى .

وهذه نظرية عجيبة ، إذ أن معناها ان علم الحياة مبنى على الحياة البدنية وحدها ولكنه فى الواقع يتناول الحياة بكافة أنواعها من بدنية ونفسية . وقد برهن علم الوراثة على توارث الصفات البدنية والصفات النفسية على حد سواء . ومن العجيب أن يكون مرجع المشتغلين بعلم النفس أمرا بدنيا ، لا أمرا نفسيا فيكررون لهذا أخطاء السلوكيين والاتحائين وأمثالهم . على اننا نؤمن من عشرات السنين بأن الانسان وحدة بدنية نفسية تعيش فى بيئة مادية اجتماعية . وهذه التفاصيل النفسية لا ترجع بالضرورة عند درسها من الناحية الوراثة الى مراجع جسمية .

وهذا الخطأ الذى يقع فيه المشتغلون بعلم النفس تحرر منه المشتغلون بالعلوم الطبيعية فبعد ان كان مرجع الظواهر الطبيعية عندهم هو المادة أصبح المرجع أمرا لا يمكن لمسه وهو الطاقة . فانتقلوا من المادة التى يمكن لمسها ووزنها الى القوى واتجاهاتها وعلاقاتها ، وهى أمور لها وجود يختلف عما كنا نظنه عن الوجود المادى .

وحجة المشتغلين بعلم النفس أن الأساس العلمى الوحيد فى نظرهم هو أن يكون مرجعهم جسيما عصبيا يمكن لمسه والاحساس به ، على أن العلم لا يقول : ان اختيار أحد المرجعين - البدنى أو النفسى - دون المرجع الآخر بطريقة اعتبارية صرف يمكن أن يكون منهجا علميا سليما (1) .

الفريزة والغرض البيولوجى :

قيل : ان الغرائز تحقق أغراضا حيوية للكائن الحى فالجنسية تحقق

(1) راجع تاريخ الفلسفة فى العلاقة بين الجسم والعقل من فجر التاريخ حتى الآن .

التوالد والتكاثر واستمرار بقاء النوع الحيوانى . والبحث عن الطعام يحقق تناول الغذاء واستمرار حياة الفرد . واذا أريد تطبيق هذا المبدأ على بقية الغرائز كما صنفها « مكدوجل » أو « وليم جيمس » أو « ثورنديك » لوجدنا شيئاً من الصعوبة عندما نصل الى غريزة الضحك ، وغريزة الحمل والتركيب ، وغريزة الخضوع . والسرفى هذه الصعوبة ان هذه الأغراض الحيوية واضحة مباشرة أحيانا ، وغامضة غير مباشرة فى أحيان أخرى . ومع هذا يمكن الدفاع عن كل غريزة من حيث خدمتها للأغراض الحيوية . ويمكن فى هذا المقام بيان تآزر الغرائز المختلفة لخدمة هذه الأغراض ، والفرد الذى يفحص ما أمامه من أشياء قبل أن يأكلها يتآزر عنده الاستطلاع والحل والتركيب ، والبحث عن الطعام .. وهكذا .

الغرائز وتصنيفها :

وهناك اعتراض آخر جعله بعض الناس أساسا لترك نظرية الغرائز ، وهو اختلاف العلماء على تصنيفها . فقال « ثورنديك » بما يقرب من مائة غريزة . وقال « مكدوجل » بما يقرب من عشرين . وقال « آدلر » بغريزة واحدة . وقال « فرويد » بغريزتين .. وهكذا . استند البعض على هذا وقال : حيث انهم اختلفوا فى التصنيف فانا سنتكلم عن الدوافع بدلا عن الغرائز (١) ولا مانع عندى من اتخاذ هذا الاتجاه لاستعمال لفظ جديد لم يصبه أثر من سوء الاستعمال ولكن تعليل التغيير بهذه الصورة ليس فى نظرى مبررا على الاطلاق .

واذا تأملنا تقسيمات الغرائز نجد ان كل عالم كان لديه مبدأ يقيم عليه تقسيماته ، وكان هذا المبدأ أحيانا صريحا ، وأحيانا ضمينا ، فعندما أخذ العالم بالأغراض البعيدة تجمعت الغرائز ، وعندما أخذ بالأغراض القريبة تعددت الغرائز ، فاذا ما اتقلنا من الأغراض الى السلوك نفسه تعددت حتى زادت على المائة وليس هذا عيبا فى نظرية الغرائز وانما هو اقامة لتصنيفات مختلفة على مبادئ مختلفة ، كما أقسم الناس اقساماً بحسب

(١) راجع كتاب الدوافع النفسية : الفصل الأول . للدكتور « مصطفى

ألوان جلودهم ، ثم أقسمهم أنفسهم مرة أخرى بحسب أطوالهم ، وأقسمهم أنفسهم مرة ثالثة بحسب دياتهم ، وليس معنى اختلاف التقسيمات ان أغبر أسماءهم فلا أسميهم أناسا بعد ذلك .

الدوافع والاتجاهات والميول :

ذكرنا حتى الآن ما للغرائز وما عليها ، ويرجع الى هذه الاعتراضات ما اتجه اليه المشتغلون بعلم النفس من الرغبة في التحدث عن الدوافع ، أو الميول ، أو الاتجاهات ، أو القوى المحركة ، أو الحاجات النفسية .

وأغلب هذه الاتجاهات تلتزم شيئا من الغموض حتى لا تقع في أخطاء نظرية الغرائز بسبب ما التزمته من الوضوح والتفصيل والتحديد .

وإذا أردنا أن نحدد كنه ما يتضمنه كل من هذه المصطلحات ، وأردنا أن نقوم بعمليات التصنيف لوجدنا أنفسنا في الموقف الذي وقفته نظرية الغرائز ، ولوجدناها معرضة لنفس النقد . فالسبب الذي من أجله لا يمكننا أن نتحدث عن الغرائز اطلاقا لا يمكننا من أجله أن نتحدث عن الدوافع اطلاقا (١) كذلك تصنيف الدوافع يخضع لنفس النقد فالدوافع في نظر البعض اما أولية أو ثانوية .

والأولية فطرية ذات أساس عضوي ، أما الثانوية فيصحبها من عدم التحديد شيء كثير (٢) .

والدوافع في نظر البعض الآخر عضوية كالتنفس ، والتغذية ، والنوم ، والجنسية . وشخصية ترمى الى حفظ الذات كالتغذية ، والهرب . واجتماعية كالمقاتلة ، وحب الاجتماع ، والجنسية . ومشبقة تتكون في أثناء اشباع الدوافع الأخرى كالعادات . وهذا التقسيم من التداخل بحيث انك تجد الجنسية تقع تحت نوعين ، والتغذية تقع كذلك تحت نوعين ، وهكذا مما لا ترضى عنه الأصول المنطقية التي تتبع في عمليات التقسيم والتصنيف .

(١) انظر مقدمة هذا الفصل .

(٢) حتى أنه يمكننا أن نقول : ان الدوافع الأولية فطرية ذات أساس عضوي والدوافع الثانوية هي ما ليس كذلك .

وهذا الذى قلناه عن الدوافع يمكن أن نقوله عن الاتجاهات ، والميول ، والقوى المحركة ، والغرائز .

ونخرج من هذا العرض كله بمغزى واحد ، وهو أن الانسان يولد مزودا بطاقات حيوية فطرية ، بعضها عام ، وبعضها خاص وهذه الطاقات لها من التكوين الجسمى والعصبى ما يعاونها على تحقيق الأغراض الحيوية للفرد والنوع . هذه الطاقات موروثه والدليل على هذا يؤخذ من دراسة واسعة عميقة لعلم التطور (١) ولا يمكن الا أن نسلم بالاستمرار والاتصال فى عالم الحياة بين الانسان والحيوان الراقى .

أما تسمية هذه الطاقة أو الاستعدادات بالغرائز ، أو الدوافع ، أو الميول ، أو الاتجاهات ، أو الحاجات ، أو النزعات فانه أمر عديم القيمة بذاته ويعرض صاحبه لنفس النوع من النقد فى كل حالة كما أوضحنا .

وقد عقدت مجلة علم النفس التربوى البريطانية فى عامى « ١٩٤١ » و « ١٩٤٢ » مساجلة بين أئمة العلماء فى أمريكا وانجلترا لمعرفة ما صارت اليه نظرية الغرائز ، أمات وأصبحت وديعة فى ذمة التاريخ أم انها ما زالت حية فى ميدان العلم الحى ؟ و انتهت هذه المساجلة التى اشترك فيها « بيرت Burt » ، و « مايرز Myers » ، و « بيرز Pears » ، و « ثورنديك Thorndike » ، و « فرنون Vernon » « بأن هذه النظرية قائمة فى جوهرها ، وان كان بعض التعديل قد تناولها فى بعض تفصيلاتها (٢) .

الغرائز وحاجات الطفولة :

وقد وجد بعض المشتغلين بدراسات الأطفال فى العيادات السيكولوجية أن الغرائز — وان كانت تفسر سلوك الأطفال — لا يسهل ادراكها ، ووصلوا الى تفسيرات أكثر وضوحا من الغرائز وسموها بالحاجات ، فالطفل يشعر بالحاجة الى الأمن أو الحاجة الى التقدير ممن حوله أو غير

(١) يظن الناس أن « مكدوجل » هو صاحب نظرية الغرائز بينما أول من تكلم عن غرائز الانسان هو « داروين » ثم « وليم جيمس » .

(2) Is the Instinct Theory Dead : British Journal of Educational Psychology 1941, 1942.

ذلك . رأى هؤلاء أن تفسير سلوك الأطفال بالحاجات أفيد من الناحية العملية ، ولكنهم اختلفوا في عدد هذه الحاجات وفي أسمائها . وكان موقفهم من هذا الخلاف شبيها بموقف العلماء من الغرائز . فبينما أراد بعض العلماء الاقتصار على عدد قليل جدا من الحاجات رأى البعض الآخر ضرورة القيام بشيء من التفصيل .

وهناك في نظر بعض الباحثين ثلاث حاجات أساسية وهي :

- ١ - حاجة المرء الى النمو .
- ٢ - حاجته الى أن يكون له ميول .
- ٣ - حاجته الى أن يكون هو موضوع ميل أو حب .

والمقصود بالحاجة للنمو النمو من جميع نواحيه ، فهناك النمو الجسمي ، وهناك نمو المعرفة ، وغير ذلك . ولا شك أن الطفل تشتاق نفسه للنمو ، وتفسر الحاجة للنمو في موضوع الغريزة بغرائز عدة ، كالبحث عن الطعام ، وغريزة الاستطلاع ، وغريزة الحل والتركيب ، وغير ذلك .

وأما حاجة المرء الى أن تكون له ميول ، فأنها تبدو في رغبة الأطفال في تكوين أصدقاء ، وفي تكوين هوايات وغير ذلك . وأما الحاجة الى أن يكون هو موضوع ميل أو يكون محبوبا من والديه وزملائه ورؤسائه ومواطنيه وغيرهم ، فلا شك أيضا انها حاجة أساسية قد تفسر « بالغريزة » الاجتماعية « وغريزة » السيطرة وما الى ذلك .

والواقع أن الذين يدرسون الحالات الفردية يمكنهم استغلال الحاجات الثلاث السابقة الذكر في تفسير سلوك الأطفال وفي محاولة توجيههم .

ويرى بعض الباحثين أن الحاجات الأساسية اثنتان ، وهما الحاجة للأمن والحاجة للمخاطرة ، وهاتان النزعتان ظاهرتان في المجتمع ، فالمجتمع يبدو كأن فيه قوة للمحافظة أو صون التقاليد ، وقوة للتجديد والابتداع والمخاطرة وتتنازع هاتان القوتان المجتمعات والأفراد بشكل واضح .

ويمكن تفسير هاتين الحاجتين على أساس الغرائز التي وضع قائمتها « مكدوجل » . ويمكننا أن نتبين في سلوك الأطفال هاتين النزعتين أو

الحاجتين فبحث الطفل عن الطعام والتصاقه بوالديه هو اتجاه نحو الأمن ،
 وميل الطفل للمقاتلة وحل الأشياء وتركيبها هو اتجاه نحو المخاطرة . هذا
 ويمكن الاستغناء عن التفسير المبني على الحاجة للمخاطرة واعتبارها نتيجة
 للشعور بالأمن . فالميل للمخاطرة يزداد ويبرز اذا توافر الشعور بالأمن ،
 فالطفل الذي يهاجم غيره انما يفعل ذلك لوثوقه بقوته ، والفرد الذي يكسب
 عيشه من عمل معين لا يقدم على تركه الا اذا وثق من عمل آخر أو من
 احتمال وجود عمل آخر . بذلك نرى أن الأمن والمخاطرة يغذى كل منهما
 الآخر فكلما ازداد الشعور بالأمن ازدادت القدرة على المخاطرة ، وكلما
 خاطر الشخص اكتسب من التجارب والثقة بالنفس ما يجعله يؤمن
 بقوته ويطمئن الى نفسه . بذلك نرى أن الأمن والمخاطرة يؤثر كل منهما في
 الآخر ويتأثر به . ويبدو من هذا أن الحاجة الى الأمن هي الحاجة الأساسية في
 نظر بعض الباحثين . ولكن النقد الذي يوجه الى هذا هو أن التقليل من
 الدوافع أو الحاجات الى حد كبير يجعل التفسير غير مفيد من الناحية
 العملية .

لهذا نشأ تقسيم آخر أكثر تفصيلا وأكثر فائدة من الناحية العملية
 سواء في التفسير أو العلاج ، يقول بأن حاجات الطفولة ست وهي :

| | |
|-------------|----------------------|
| Security | ١ — الحاجة للأمن |
| Affection | ٢ — » للمحبة |
| Recognition | ٣ — » للتقدير |
| Freedom | ٤ — » للحرية |
| Control | ٥ — » الى سلطة ضابطة |
| Success | ٦ — » الى النجاح |

والحاجة الى الأمن تبدو في النواحي الجسمية والعقلية ، فالطفل يريد
 أن يأوى الى والدته ، ويريد أن يتغذى ، ويريد أن يأمن البرد والحر
 وغير ذلك . والأمن العقلي يبدو في خوف الطفل من كل غريب ورغبته في
 بحثه ومعرفته حتى يمكنه بناء على معرفته أن يطمئن اليه أو يبتعد عنه نهائيا ،

فالرغبة في الأمن رغبة أكيدة ، ولا يتقدم الطفل بسهولة في ميدان الا اذا اطمأن وشعر بالأمن في شئونه الحيوية ، وفقدان الأمن يترتب عليه القلق والخوف وعدم الاستقرار .

أما الحاجة للمحبة فتبدو في أن الطفل يريد أن يشبع حبه لأمه ومن حوله ، ويريد أن يشبع من حبهم له . ويخطئ ، بعض الآباء اذ يربون أبنائهم تربية « عقلية » مبنية على مجموعة من القواعد الباردة الخالية من كل عاطفة ، بينما يريد الطفل أن يشعر شعورا كاملا بحب والديه له وبجبه لوالديه ، وهذا هو السبب في أفضلية التغذية الطبيعية من ثدى الأم على التغذية الصناعية ، ففي الأولى تحتضن الأم طفلها ويتمتع الطفل بأمرين الغذاء والحنان . وأما التغذية الصناعية فتخلو غالبا من شعور الطفل بحنان أمه . ولذا يحسن في حالة الأطفال الذين تضطربهم ظروفهم الى تغذية صناعية أن تحملهم أمهاتهم الى صدورهن ويجلسن الجلسة التي ينصح بها أطباء الأطفال في حالة اعطائهم غذاءهم .

وأما الحاجة للتقدير فانها تبدو في شغف الطفل بأن نعترف به ونشجعه اذا مشى أو تكلم ، ولا نقدم عليه غيره في كل مرة ، ولا نهملهم ونهتهم بأخيه الى غير ذلك .

وميل الطفل للحرية يبدو من غضبه اذا قيدنا حركاته ، ومن شغفه باللعب والتسلق والتزحلق والجري ، وميله للحرية في الحركة يتبعه ميله لحرية الكلام وحرية التفكير . والحرية هي التي تساعد على النمو . غير ان الطفل يتضايق من الحرية الكاملة ، فهو يود أن يعلم من آن لآخر ما يراد منه عمله ، ويود أن يتأكد من سلوكه ان كان يوافق عليه الغير أم لا . فكان الطفل يجب أن تكون أمامه سلطة ضابطة ترشده وتوجهه ولا تقيد به بقيود جامدة .

وكذلك يميل الطفل للنجاح ويتطلع اليه ، والنجاح هو الذي يجعله يثق بنفسه ويشعر بالأمن ويقوم بمحاولات أخرى لتحسين سلوكه ، فالنجاح في أول خطوة يخطوها الطفل عند أول تعلمه المشي هو الذي يدفعه الى محاولات أخرى .

هذه حاجات نفسية ، وهناك حاجات بدنية فسيولوجية ؛ كالحاجة للنوم والحاجة المكتسبة للتدخين والحاجة للتنفس والغذاء .

وهناك تقسيمات أخرى للحاجات النفسية . ولنا متجهين الى عرض جميع أنواع التقسيمات ؛ ذلك لأننا اکتفينا بالتقسيم الذى ثبتت قيمته التفسيرية والتطبيقية .

وهذه الحاجات التى ذكرناها ليست مقتصرة على الأطفال وانما هى تفسر بسهولة سلوك الكبار أفرادا أو جماعات . وكل ما تمتاز به الحاجات عن الغرائز أنها عملية من حيث قدرتها على تفسير السلوك وتوجيه العلاج . وعلينا أن نتذكر أن الحاجة ليست نهائية ، وانما هى بدورها يمكن تفسيرها على أساس الغرائز أو على أساس الدوافع بحسب التسمية التى نميل اليها .

الزعات الفطرية والتعليم :

كانت مشكلة التعليم قديما مشكلة ادراكية صرفا ، فكان المدرس يهتم بناحية المعرفة ، والطفل عليه أن يفهم ويحفظ ما يلقى عليه من المعلومات ، ولكن أصبح المربون يهتمون الآن بالدافع لكسب المهارة ، واستشارة هذا الدافع هى الخطوة الأولى التى يبنى عليها تحرك الطفل واندفاعه نحو غاية معينة يسعى لتحقيقها . وفى أثناء نشاط الطفل لتحقيق هذه الغاية المعينة يقوم بسلوك عقلى وحركى . هذا السلوك العقلى والحركى يتحسن ، ويطلق على هذا التحسن فى النواحي العقلية والحركية اسم التعلم . تغير الحال اذن فبعد أن كان الاهتمام منصبا على التعليم أصبح منصبا أكثر على التعلم ، والفرق بين هذين الاتجاهين هو أن الرأى الحديث يهتم بنشاط المتعلم أو بفاعليته ، بينما الرأى المألوف يهتم بنشاط المعلم وفاعليته .

لذلك اختلفت دور التعليم الحديثة عن دور التعليم المألوفة فى الأخيرة يجلس المتعلم ، ويقوم المعلم بنشاط كبير فى الشرح والتفهيم ، ويقتصر عمل المتعلم على الاستماع وقبول ما يلقى عليه . واما فى دور التعليم الحديثة فان المتعلم يقوم بنشاط البحث والتنقيب واجراء التجارب ، ويقتصر عمل المعلم على توجيهه متى لزم الأمر . والرأى الحديث القائم على فاعلية المتعلم

ونشاطه يعترف بأن للطفل غرائز أو قوى أو دوافع أو محركات تجعله أميل الى الفاعلية منه الى الاقتصار على الانفعالية أو مجرد التأثير ولأجل أن نفهم ما يقصد من أن عملية التعلم مبنية على تنشيط الكائن الحي باستثارة غرائزه أو دوافعه أو قواه نذكر مثالا من التجارب العديدة التي أجراها علماء النفس . ولنأخذ تجربة أجراها « مكدوجل »⁽¹⁾ اذ وضع لكلبه الجائع قطعة من الخبز (بسكويت) في صندوق مقفل بطريقة معقدة . فالجوع هنا مستثار وتحركه عوامل بعضها احساسات داخلية وبعضها احساسات خارجية فيحاول الكلب الحصول على « البسكويت » . فاستثارة الدافع الغريزي أو الطبيعي نشطت الكائن الحي للقيام بسلوك يرمى الى الحصول على « البسكويت » هذا السلوك يتعدل ويتهدب الى أن ينجح في الوصول الى غايته وبعد مرات عدة يكتسب الكلب مهارة في فتح الصندوق . هنا يتعلم الكلب فتح الصندوق ، وكان لابد لهذا من دافع أو قوة محرّكة ، فالتعلم هنا ما هو الا تحسن في أساليب الكلب ووسائله لاشباع دوافعه التي تحفزه للسعي والنشاط والمحاولة .

وبنفس الطريقة يمكن استثارة الأطفال لاشباع دوافعهم أو غرائزهم المختلفة ، وفي أثناء اشباعهم لها يتعلمون أشياء كثيرة تزداد بها مهارتهم وكفايتهم لمواجهة مشكلاتهم .

لنأخذ مثالا بسيطا وهو حفظ جدول الضرب . هناك عدة طرق يمكن اتباعها ، منها أن يؤمر التلميذ بحفظه بعد فهمه لأساسه ، فاذا لم يحفظه يقرى بالمكافأة أو يهدد بالعقاب أو يثار بالتنافس الى أن يحفظه ، أو يحلى جدول الضرب بأساليب لطيفة تجعله سهل الاستساغة ، أو يتعلم الطفل جدول الضرب حتى يمكنه القيام بعملية البيع والشراء ، أو بناء حظيرة للدواجن ، أو معرفة ما تتكلفه دواجنه للطعام أو غير ذلك . وظاهر أن الطريقة الأخيرة أحب الى النفس من غيرها ، وهذه الميزة ناشئة من أن جدول الضرب لا يحفظ فيها لغير غاية ، وانما عملية فهم الجدول وحفظه نوع من النشاط المهم

(1) Mc Dougall : An Outline of Psychology.

لاشباع غايات أخرى يتحقق في اشباعها التعبير عن الغرائز أو الدوافع النفسية المختلفة من سيطرة وحل وتركيب ولعب واجتماع واستطلاع وما الى ذلك .

وفي طرق التدريس المألوفة، يمكن استغلال دراسة الغرائز أو الدوافع الأولية في جعل الدروس مشوقة ، ففي دروس مبادئ العلوم لا يصح الاكتفاء باللقاء والشرح ، وانما يصح استثارة الميل الى الاستطلاع في التلاميذ ؛ مما يجعلهم يفكرون في السبب في ظاهرة معينة ، والحكمة منها ، وغير ذلك . وفي مثل هذه الدروس أيضا نعطي للتلاميذ فرصة رسم النماذج مما يشبع فيهم السيطرة ، والحل والتركيب ، والاستطلاع ، ويصح تشجيع التلاميذ على جمع نماذج خارج الفصل مما له علاقة بدروسهم واستحضارها لتركيبها وعمل المتاحف منها ؛ وفي هذا اشباع لميل التلاميذ الى الجمع والافتاء ، والاجتماعية والسيطرة وغير ذلك .

ولا شك أن أى درس من الدروس المألوفة اذا أعطى لفصل من التلاميذ — يتفق هذا الدرس مع قوته — يمكن جعله مشوقا بمثل ما تقدم من الطرق . هذا اذا لم يحدث تغيير جوهرى عام في أساليب التعليم .

ويلجأ كثير من المدرسين والآباء لحل مشكلة النظام أو التعليم عن طريق اثاره الخوف أو الهرب أو الخضوع ، ويحسن — ما أمكن — الا يعتمد على مثل هذه الدوافع ، فالاعتماد عليهما وان أدى الى نتائج سريعة ، الا أن له نتائج سيئة أكثر رسوخا وأشد تأثيرا ، فيترتب عليهما تنشئة الطفل الجبان المتردد القليل الثقة بنفسه ، أو الطفل الثائر الذى يصعب ضبطه تحت أى سلطة مرشدة .

ونختتم هذا بأن نقول : ان الغرائز أو الدوافع الأولية هي مصادر الطاقة البشرية وهي الأسس الهامة التى يجب أن تستغل في تكوين عادات النشء وميولهم وأخلاقهم ، فعلينا أن نبدأ بها لتوجيه السلوك ونرجع اليها في محاولة فهمه .

خاتمة :

رأينا مما تقدم انه لا بد لنا من افتراض « غرائز » أو دوافع ، أو قوى ، أو نزعات لتفسير السلوك ولتوجيهه . ولكن علينا أن نتذكر دائما ان التفسيرات الضيقة والتوجيهات المبنية على أساس ضيق تغفل المبادئ الأساسية التي قدمناها ، فهي تغفل تعدد العوامل الداخلية في الفرد والعوامل الخارجية في البيئة ، وتهمل فكرة تشابك هذه العوامل في صورة كلية شاملة متماسكة .

فمن الخطأ أن نقول : ان التلميذ الذي يسرق يحتاج الى أن نعلی فيه غريزة حب التملك . والتلميذ الذي يشاغب يحتاج الى أن نعلی فيه غريزة السيطرة . والتلميذ الفضولي يحتاج الى اعلاء في غريزة حب الاستطلاع . فهذه العيوب عيوب الشخصية كلها ، ولكي نفهمها لا بد أن نرسم صورة كاملة للشخصية حاضرها وماضيها ، وربما يسرق التلميذ لأن السرقة هي أيسر السبل للحصول على ما يقضى به حاجاته ، وربما كان لخوفه من حوله وعدم اطمئنانه لهم ، وربما كان لحرمانه من حب أحد أبويه ، وربما كان لهذه الأسباب مجتمعة ، وربما كانت هناك أسباب غير ما ذكرناه (١) .

والمهم فيما عرضناه ان الطفل لا يولد خلوا من القوى والدوافع ، وانه ليس افتئاتا على العلم ان نسميها « غرائز » اذا فهمنا مدلول الكلمة بصورة معدلة تختلف بعض الشيء عن الصورة التي قدمها بها « مكدوجل » . هذه القوى أو الغرائز يمكن استغلالها في اطار الوظيفية ، والكلية ، والغرضية لفهم سلوك البالغين والأطفال ولتوجيهه .

بهذا صار للتربية معنى جديد ، فبعد أن كان المفروض أن المربي يمكنه أن يقوم بأي عمل لتكوين الطفل بالصورة التي يريدها أصبحت مهمة المربي محصورة في تهيئة الظروف لانماء القوى الموجودة في الطفل على أحسن وجه ممكن . وهذه القوى شديدة المرونة عند الانسان ، خصوصا في طفولته ، ولذا يمكن تعديلها الى درجات بعيدة المدى .

(١) بينا ذلك في كتاب أسس الصحة النفسية ودلنا عليه بحالات كثيرة .

المراجع

١ — أسس الصحة النفسية للدكتور عبد العزيز القوصى

2. Fox : Educational Psychology.
3. James, W. : Talks to Teachers.
4. Meredith : Psychology Applied to Education.
5. Sturt & Oakden : Modern Psychology and Education.
6. G.W. Allport : Personality. A Psychological Interpretation.
7. Symposium : Is the Instinct Theory Dead. British Journal of Educational Psychology 1941-1942.